تلاعب الشيطان بعقول اليهود

{ذكر أكثر من عشرين لعبة من ألاعيب الشيطان بعقول اليهود وحاخاماتهم}

جزء منتقى من كتاب «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان»

للعلامة شمس الدين، محمد بن أبي بكر الدمشقي

المعروف بابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ)

إعداد

ماجد بن سليمان

ربيع الأول - ١٤٤٣ هجري

الموافق: أكتوبر ٢٠٢١ ميلادي

مقدمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا جزء منتقىٰ من كتاب «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» لشمس الدين ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالىٰ، يُـبين التغير التدريـجي الذي حصل في عقيدة اليهود علىٰ مر القرون، إلىٰ أن وصلت إلىٰ ما وصلت إليه من التناقض والاضطراب الشديد.

والذي دعاني لإفراد هذا الجزء كونه مغمورًا في الكتاب المشار إليه، فربما لا يفطن الناس له، لا سيما اليهود، فأخرجته مستقلًّا، ليعم النفع ويسهل الانتشار.

والهدف الكلي من نشر هذا الجزء ليس هو مغالبة اليهود علىٰ دينهم أو الانتصار لمنهج معين، لا والله، وإنما هو بيان الخلل الحاصل، ثم التعاون للوصول إلىٰ الطريق الذي أراده الله تعالىٰ لعباده كلهم، وبيَّـنه علىٰ لسان أنبيائه، ولم يرتضِ طريقًا غيره.

ومن الجدير بالذِّكر في هذا المقام أنه لما حصل الاضطراب بين أهل

الكتاب – اليهود والنصارىٰ – في عقائدهم؛ لم يتركهم الله تعالىٰ – حيارىٰ مضطربين، بل أرسل إليهم رسولًا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة، وهو محمد (صلىٰ الله عليه وسلم)، ليردَّهم إلىٰ جادة الصواب.

وقد جاءت الإشارة إلىٰ هذا النبي في التوراة والإنجيل، والمنصفون من اليهود يعلمون تلك الإشارات، ولذا يحصل التحول عندهم إلىٰ دين الإسلام، لأنهم علموا أن اتِّباع دين محمد ما هو إلا اتباع لتعاليم موسىٰ عليهما جميعًا أفضل الصلاة والسلام.

وأما ابن القيم (رحمه الله) فهو محمد بن أبي بكر بن سعد الزُّرَعي ثم الدمشقي، المعروف بابن قيم الجوزية، من علماء المائة الثامنة، لازم شيخه ابن تيمية إلىٰ أن مات سنة ٧٢٨، فكان من كبار تلامذته، ثم حمل بعده لواء الدعوة والجهاد العلمي إلىٰ أن مات سنة ٧٥١، كان واسع المعرفة، قوي الحجة، دقيق الاستنباط، كثير المصنفات، ومؤلفاته مقبولة عند جميع الناس، حتىٰ صار مَن بعده عيالًا عليه، نصر العقيدة الإسلامية نصرًا مؤزَّرًا، ورد علىٰ المبتدعة نظمًا ونثرًا، لاسيما المتفلسفة والقبورية والمؤولة والمتصوفة، رحمه الله رحمة واسعة، فقد جدد هو وشيخه – ابن تيمية – دين الله، فكانا منعطَفًا في حياة الأمة الإسلامية.[١]

---

(١) انظر ترجمته موسعة في «شذرات الذهب» لابن العماد و «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (رحمه الله).

وبعد: فقد اعتمدتُ في إخراج هذا الجزء علىٰ الله تعالىٰ أولًا، ثم علىٰ النسخة التي نشرتها دار عالم الفوائد بتحقيق المحقق الفاضل محمد عزير شمس حفظه الله[١]، فهي الأصل، وربما أشرت في بعض المواطن إلىٰ فروق عن النسخة المنشورة من قِبَـلِ دار ابن الجوزي، والتي حققها فضيلة الشيخ المحقق علي بن حسن بن عبد الحميد (رحمه الله)[٢].

والله أسأل أن يوفق جميع الناس لسلوك طريق الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده كلهم، إنسهم وجنهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

وصلىٰ الله علىٰ محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

وكتبه، ماجد بن سليمان،

في صبح الثاني والعشرين من شوال، لعام ١٤٣٣ هجري.

Think.logic.always@hotmail.com

---

(١) يقع الجزء في الصفحات: ص ١٠٧٤ إلىٰ آخر الكتاب.

(٢) يقع الجزء في الصفحات: ص ١٠٥٣ إلىٰ آخر الكتاب، وقد أذِن لي (رحمه الله) في الاستفادة من تخريجاته وتعليقاته علىٰ الكتاب.

{تلاعب الشيطان بعقول اليهود}

قال ابن القيم (رحمه الله) في كتابه «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان»:

{فصلٌ في ذكر تلاعبه بالأمة الغضبية وهم اليهود}

قال الله تعالىٰ في حقهم: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾(١)، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾(٢)، وقال تعالىٰ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ

---

(١) سورة البقرة: ٩٠.

(٢) سورة المائدة: ٦٠ – ٦١. والآيات من قوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ مثبتة في نسخة علي وليست مثبتة في نسخة عزير.

لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾[١].

وقد أمرنا الله سبحانه أن نسأله في صلواتنا أن يهدينا صراطَ الذين أنعم عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وثبت عن النبي (صلىٰ الله عليه وسلم) أنه قال: اليهود مغضوب عليهم والنصارىٰ ضالون.[٢]

فأوَّل تلاعبِ الشيطان بهذه الأمة في حياة نبيها، وقرب العهد بإنجائهم من فرعون، وإغراقه وإغراق قومه، فلما جاوزوا البحر رأوا قومًا يعكُفون[٣] علىٰ أصنام لهم فقالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾[٤]، فقال لهم موسىٰ (عليه السلام): ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾[٥]، فأيُّ جهلٍ فوق هذا، والعهد قريب، وإهلاك

---

(١) سورة المائدة : ٨٠ .

(٢) رواه الترمذي (٢٩٥٣، ٢٩٥٤) وابن حبان (٦٢٤٦) وأحمد (٥/ ٣٧٨ - ٣٧٩)، وصححه الألباني (رحمه الله).

(٣) يعكفون أي يقيمون في مكان ويلزمونه مدة. انظر «النهاية».

(٤) سورة الأعراف : ١٣٨ .

(٥) سورة الأعراف : ١٣٨ – ١٣٩ .

المشركين أمامهم برأيِ عيونهم، فطلبوا من موسىٰ (عليه السلام) أن يجعل لهم إلٰهًا، فطلبوا من مخلوقٍ أن يجعلَ لهم إلٰهًا مخلوقًا، وكيف يكون الإلٰه مجعولًا؟ فإن الإلٰه هو الجاعل لكل ما سواه، والمجعول مربوب مصنوع، فيستحيل أن يكون إلٰهًا.(١)

وما أكثرَ الخَلَفَ لهؤلاء في اتخاذ إلٰهٍ مجعولٍ، فكل من اتخذ إلٰهًا غير الله فقد اتخذ إلٰهًا مجعولًا، وقد ثبت عن النبي (صلىٰ الله عليه وسلم) أنه كان في بعض غزواته، فمرُّوا بشجرة يُعلِّق عليها المشركون أسلحتَهم وشاراتِهم(٢) وثيابَهم، يُسمونها «ذاتَ أنواط»، فقال بعضهم: يا رسول الله، اجعل لنا «ذات أنواط» كما لهم «ذات أنواط».

فقال: الله أكبر، قلتم كما قال قوم موسىٰ لموسىٰ: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾.

ثم قال: لتركبُنَّ سَنَنَ(٣) مَن كان قبلكم (حَذو القُذَّةِ بالقُذَّة)(٤).(٥)

---

(١) هذا من وجوه بطلان دعاء غير الله، وقد يسر الله القيام ببحث بعنوان «خمسون دليلًا علىٰ بطلان دعاء غير الله»، وهو من منشورات مكتبة الاستقامة بمصر.

(٢) شاراتهم جمع شارة وهي اللباس الحسن كما في «المعجم الوسيط».

(٣) السَّنَن جمع سنة وهي الطريقة والمسلك.

(٤) ما بين القوسين ليس من لفظ الحديث، فقد وهم المؤلف فأدخله في هذا الحديث.

(٥) رواه الترمذي (٢١٨٠) وابن حبان (١٥/ ٩٤) وأحمد (٥/ ٢١٨) والنسائي في «الكبرىٰ» =

فصلٌ، ومن تلاعبه بهم عبادتُهم العِجلَ من دون الله تعالىٰ[١] وقد شاهدوا ما حلَّ بالمشركين من العقوبة والأخذةِ الرَّابية[٢]، ونبيهم حيٌّ لم يمت، هذا وقد شاهدوا صانعَه يصنَعُهُ ويصُوغه ويُصليه النارَ، ويدُقُّه بالمطرقة، ويسطو عليه بالمبرد، ويُقلِّبه بيديه ظهرًا لبطنٍ.

ومن عجيب أمرهم أنهم لم يكتفوا بكونه إلٰهَهم حتىٰ جعلوه إلٰهَ موسىٰ، فنسبوا موسىٰ (عليه السلام) إلىٰ الشرك وعبادة غير الله تعالىٰ، بل عبادة أبلد الحيوانات وأقلها دفعًا عن نفسه، بحيث يُضرب به المثل في البلادة والذل، فجعلوه إلٰهَ كليمِ الرحمٰن [٣].

ثم لم يكتفوا بذلك حتىٰ جعلوا موسىٰ (عليه السلام) ضالًّا مخطئًا فقالوا: ﴿فَنَسِيَ﴾، قال ابن عباس: أيْ: ضلَّ وأخطأ الطريق.

وفي رواية عنه: أيْ إنَّ موسىٰ ذهب يطلب ربه فضلَّ ولم يعلم مكانه.

=

(١١١٢١)، وصححه الألباني، وفي بعض الألفاظ أن النبي (صلىٰ الله عليه وسلم) كبَّر، وفي بعضها أنه سَبَّح.

(١) هذا هي الألعوبة الثانية.

(٢) معنىٰ أخذةً رابية: أي شديدة، يريد بها إغراق فرعون وقومه.

(٣) كليم الرحمٰن هو موسىٰ، لأن الله تعالىٰ كلمه، كما قال سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾.

وعنه أيضًا: نسِيَ أن يذكر لكم أن هذا إلٰهُه وإلٰهُكم.

وقال السُّدِّي: أي ترك موسىٰ إلٰهَه هٰهنا وذهب يطلبه.

وقال قتادة: أي إنَّ موسىٰ إنما يطلب هذا ولكنه نسيه وخالفه في طريق آخر.

علىٰ هذا القول: المشهور أن قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ من كلام السَّامري وعُبَّاد العِجل معه.

وعن ابن عباس روايةٌ أخرىٰ: أنَّ هذا من إخبار الله تعالىٰ عن السامري أنه نسي، أي: ترك ما كان عليه من الإيمان.

والصحيح القول الأول، والسياق يدل عليه، ولم يذكر البخاري في «التفسير» غيرَه، فقال: هم يقولونه: أخطأ الرب.(١)

فإنه لما جعله إلٰه موسىٰ استحضر سؤالًا من بني إسرائيل يورِدونه عليه فيقولون له: إذا كان هذا إلٰه موسىٰ، فلأيِّ شيء ذهب عنه لموعدِ إلٰهِهِ؟

فأجاب عن هذا السؤال قبل إيراده عليه بقوله: ﴿فَنَسِيَ﴾.

وهذا من أقبح تلاعب الشيطان بهم، فانظر إلىٰ هؤلاء كيف اتخذوا إلٰهًا مصنوعًا مصُوغًا من جوهرٍ أرضيٍّ، إنما يكون تحت التراب، محتاجًا إلىٰ سبكٍ

(١) انظر «صحيح البخاري»، كتاب التفسير، تفسير سورة طٰه، وقد تم ضبط كلامه منه.

بالنار، وتصفيةٍ وتخليصٍ لِـخبثه منه، مدقوقًا بمطارق الحديد، مُقلَّبًا في النار مرة بعد مرة، قد نُحِت بالـمَبارد، وأَحدث الصانع صورته وشكله علىٰ صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذُّل والضَّيم، وجعلوهُ إلٰـهَ موسىٰ، ونسبوه إلىٰ الضلال حيث ذهب يطلب إلٰـهًا غيرَه.

قـــال محمد بن جـــرير[١]: (وكان سبب اتـــخاذهم العـجل ما حدثـني به عـــبد الكريم بن الهيثم قال: حدثنا إبراهيم بن بشار الرمادي قال: حدثنا سفيان بن عيينة قال: حدثنا أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما هجم فرعون علىٰ البحر هو وأصحابُه، وكان فرعون علىٰ فرسٍ أدهمَ[٢]، ذنوبٍ[٣] حصانٍ، فلما هجم فرعون علىٰ البحر هاب الحصان أن يقتحـم في البحر، فتمثَل له جبريل علىٰ فرس أنثىٰ ودِيق[٤]، فلما رآها الحصان تقحَّم خلفها.

قال: وعرَف السامري جبريل ... فقبض قبضة من أثر فرسه، قال: أخذ من تحت الحافر قبضةً.

---

(١) هو العالم المجتهد المحدث الفقيه المقرئ المفسر، علَّامة وقته، محمد بن جرير بن يزيد، أبو جعفر الطبري، مات سنة ٣١٠، انظر ترجمته في «السير» (١٤/ ٢٦٧)، و «وفيات الأعيان» (٤/ ١٩١-١٩٢).

(٢) فرس أدهم أي أسود، انظر «المعجم الوسيط».

(٣) ذنوب أي وافرة الذنب، وتأتي بمعنىٰ طويلة، انظر «المعجم الوسيط».

(٤) فرس وديق أي تشتهي الفحل. انظر «المعجم الوسيط».

قال سفيان: فكان ابن مسعود يقرؤها: ﴿فقبضت قبضة من أثر فرس الرسول﴾.

قال أبو سعيد: قال عكرمة عن ابن عباس: وأُلقِي في رَوعِ[١] السامري: إنك لا تُلقيها علىٰ شيء فتقول: (كن كذا وكذا) إلا كان.

فلم تزل القبضة معه في يده حتىٰ جاوز البحر، فلما جاوز موسىٰ وبنو إسرائيل البحر وأغرق الله آلَ فرعون قال موسىٰ لأخيه هارون: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ﴾، ومضىٰ موسىٰ لموعد ربه.

قال: وكان مع بني إسرائيل حُلِيٌّ من حُليِّ آل فرعون قد تعوَّروه[٢]، فكأنهم تأثَّموا منه، فأخرجوه لتنزِل النار فتأكله، فلما جمعوه قال السامري بالقبضة التي كانت في يده هكذا، فقذفها فيه ... وقال: (كن عِجلًا جسدًا له خُوار[٣])، فصار عجلًا جسدًا له خوار، وكان يدخل الريح من دُبُره ويخرج من فِيهِ، يُسمع له صوتٌ، ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾، فعكفوا علىٰ العِجل يعبدونه، فقال هارون: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ٩٠ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ٩١﴾)[٤].

---

(١) رَوعِ السامري أي نفسِهِ وخَلَدِهِ. انظر «النهاية».

(٢) تعوَّروه أي استعاروه.

(٣) الخُوار هو صوت البقر. انظر «النهاية».

(٤) انتهىٰ هنا كلام ابن جرير، وقد نقله المؤلف باختصار بعض ألفاظه كما أوضحت بالنقاط، وقد =

وقال السُّدِّي: لما أمر الله موسىٰ أن يخرج ببني إسرائيل من أرض مصر؛ أمر موسىٰ بني إسرائيل أن يخرجوا، وأمرهم أن يستعيروا الحُلي من القِبط(١)، فلما نجَّىٰ الله موسىٰ ومَن معه مِن بني إسرائيل من البحر وأغرق آلَ فرعون؛ أتىٰ جبريل إلىٰ موسىٰ ليذهب به إلىٰ الله، فأقبل علىٰ فَرَس، فرآه السامري فأنكره، ويقال: إنه فرس الحياة، فقال حين رآه: (إن لهذا لشأنًا)، فأخذ من تربة حافر الفرس، فانطلق موسىٰ (عليه السلام) واستخلف هارون علىٰ بني إسرائيل وواعدهم ثلاثين ليلة، فأتمَّها الله تعالىٰ بعشر، فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل إن الغنيمة لا تَحِلُّ لكم، وإن حُلي القبط إنما هو غنيمة فاجمَعوها جميعًا واحفِروا لها حفرة فادفنوها، فإن جاء موسىٰ فأحلَّها أخذتموها.

فجمعوا ذلك الحلي في تلك الحفرة، وجاء السامري بتلك القبضة فقذفها، فأخرج الله من الحلي عجلًا جسدًا له خوار، فلما رأوه قال لهم السامري: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨﴾، يقول: (ترك موسىٰ إلٰهَه هٰهنا وذهب يطلبه)، فعكفوا عليه يعبدونه، وكان يخورُ ويمشي، فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾، يقول: إنما ابتُليتم بالعِجل وإن ربكم الرحمٰن،

=

ضبطت النص من المطبوع، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

(١) في «مختار الصحاح» (ص٢٤٦): «(الْقِبْطُ) بِوَزْنِ السِّبْطِ أَهْلُ مِصْرَ وَهُمْ بُنْكُهَا أَيْ أَصْلُهَا» اهـ. بمعنىٰ أن القبط أو الأقباط اسم لأهل مصر الأصليين القدماء، بغض النظر عن ديانتهم، والله أعلم.

فأقام هارون ومن معه من بني إسرائيل لا يُقاتلونهم، وانطلق موسىٰ إلىٰ الله يكلمُه، فلما كلمه قال له: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥﴾، فأخبره خبرَهم، قال موسىٰ: يا رب هذا السامري أمرهم أن يتَّخذوا العِجل، فالرُّوح مَنْ نفخَها فيه؟

قال الرب تعالىٰ: أنا.

قال: يا رب أنت إذًا أضللتهم.

وقال ابن إسحاق: عن حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: كان السامري من قوم يعبدون البقر، فكان يحب عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام في بني إسرائيل، فلما ذهب موسىٰ إلىٰ ربه قال لهم هارون: (أنتم قد حملتم أوزارًا من زينة القوم آل فرعون وأمتعةً وحليًّا، فتطهَّروا منها فإنها نَجَس)، وأوقد لهم نارًا فقال: (اقذِفوا ما كان معكم من ذلك فيها)، فجعلوا يأتون بما كان معهم من تلك الأمتعة والحلي فيقذفون به فيها، حتىٰ إذا انكسر الحلي فيها ورأىٰ السامري أثر فرس جبريل؛ فأخذ ترابًا من أثر حافره ثم أقبل إلىٰ النار فقال لهارون: (يا نبي الله، أُلقِي ما في يدي؟)، ولا يظن هارون إلا أنه كبعض ما جاء به غيره من الحلي والأمتعة، فقذفه فيها فقال: (كن عجلًا جسدًا له خوار)، فكان البلاء والفتنة فقال: (هذا إلٰهكم وإلٰه موسىٰ)،

فعكفوا عليه وأحبُّوه حبًّا لم يُحبُّوا شيئًا مثله قط.

يقول الله (عز وجل): ﴿فَنَسِيَ﴾، أي ترَك ما كان عليه من الإسلام - يعني السامري - ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۝٨٩﴾، فلما رأىٰ هارون ما وقعوا فيه قال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ۝٩٠ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ۝٩١﴾، فأقام هارون فيمن معه من المسلمين[1] ممن لم يُفتتن، وأقام من يعبُد العِجل علىٰ عبادة العِجل، وتخوَّف هارون إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول له موسىٰ: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۝٩٤﴾، وكان له هائبًا مطيعًا، فقال تعالىٰ مُذكِّرًا لبني إسرائيل بهذه القصة التي جرت لأسلافهم مع نبيهم: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ﴾، يعني مِن بعد ذهابه إلىٰ ربه، وليس المراد مِن بعد موته، ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ۝٥١﴾، أي بعبادة غير الله تعالىٰ، **لأن الشرك أظلم الظلم، لأن المشرك وضع العبادة في غير موضعها.**

فلما قدِم موسىٰ (عليه السلام) ورأىٰ ما أصاب قومـــه من الفتنة؛ اشتد

---

(١) سمىٰ الله تعالىٰ جميع الأنبياء وأتباعهم بالمسلمين، لأن الإسلام بمعناه العام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، وهذه دعوة جميع الأنبياء، فلذا سموا بالمسلمين، وأما المعنىٰ الخاص للإسلام فهو الدين الذي بُعِث به محمد (صلىٰ الله عليه وسلم).

غضبه، وألقىٰ الألواح عن رأسه وفيها كلام الله الذي كتَبه له، وأخذ برأس أخيه ولحيته، ولم يَعتِبِ اللهُ عليه في ذلك، لأنه حَملَهُ عليه الغضب لله، وكان الله (عز وجل) قد أعْلَمه بفتنة قومه، ولكن لما رأىٰ الحال مشاهدةً حدث له غضبٌ آخر، فإنه ليس الخبر كالمعاينة.

فصلٌ، ومِن تلاعب الشيطان بهذه الأمة في حياة نبيهم أيضًا ما قصَّهُ الله تعالىٰ في كتابه حيث يقول: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، أي عَيانًا، قال ابن جرير: ذكَّرهم الله سبحانه بذلك اختلافَ آبائهم وسوء استقامة أسلافهم لأنبيائهم، مع كثرة معاينتهم من آيات الله ما يُـثلَج بأقلِّها الصدور، وتطمئن بالتصديق معها النفوس، وذلك مع تتابع الـحُجج عليهم، وسُبوغ[1] نِعم الله تعالىٰ لديهم، وهم مع ذلك مرَّةً يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلـٰهًا غير الله، ومرَّة يعبدون العِجل من دون الله، ومرَّة يقولون: (لا نصدقك حتىٰ نرىٰ الله جهرة)، وأخرىٰ يقولون له إذا دُعوا إلىٰ القتال: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾، ومرَّة يقال لهم: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾، فيقولون: (حِنطةٌ في شعرة)، ويدخلون من قِـبَلِ أَستاهِهِم[2]، ومرَّة يُعرَض عليهم العمل بالتوراة فيمتنعون من ذلك، حتىٰ

---

(١) سبوغ النعم أي كمالها وتمامها. انظر «المعجم الوسيط».

(٢) أستاههم جمع (أست) وهو الدُّبُـر.

نَـتَـقَ[١] الله تعالىٰ عليهم الجبل كأنه ظُـلَّةٌ، إلىٰ غير ذلك من أفعالهم التي آذَوا بها نبيَّهم التي يكثر إحصاؤها.

فأَعلمَ ربُّنا (تبارك وتعالىٰ) الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهود بني إسرائيل الذين كانوا علىٰ عهد رسول الله (صلىٰ الله عليه وسلم) أنهم لن يَعْدُوا أن يكونوا في تكذيبهم محمدًا (صلىٰ الله عليه وسلم) وجحودِهم نبوته وترْكِـهم الإقرار به وبما جاء به - مع علمهم به ومعرفتهم بحقيقة أمره -؛ كأسلافهم وآبائهم الذين قصَّ الله علينا قَصصهم.

قال محمد بن إسحاق: لما رجع موسىٰ إلىٰ قومه فرأىٰ ما هم فيه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامري ما قال، وحرَّق العِجل وذرَّاهُ[٢] في اليَمِّ[٣]؛ اختار موسىٰ منهم سبعين رجلًا، الـخيِّر فالـخيِّر، وقال: انطلقوا إلىٰ الله (عز وجل) فتوبوا إليه مما صنعتم، وسَلوه التوبة علىٰ من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهَّروا وطَـهِّروا نياتكم.

فخرج بهم إلىٰ طُورِ سيناء لميقاتٍ وقَّته له ربُّه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعِلم، فقال له السبعون - فيما ذُكِر لي - حين صنعوا ما أمرَهم به وخرجوا

---

(١) نتق أي اقتلع ورفع. انظر «تفسير ابن جرير» و«النهاية».

(٢) الـذَّرُّ هو نثر الفتات، والفتات هنا هو ما خلَّفه حرق العجل من رماد. انظر «النهاية».

(٣) اليم هو البحر.

للقاء ربه: يا موسىٰ، اطلب لنا إلىٰ ربك نسمع كلام ربنا.

قال: أفعل.

فلمَّا دنا موسىٰ من الجبل وقع عليه عمود غمامٍ(١) حتىٰ تغشَّىٰ الجبل كلَّه، ودنا موسىٰ فدخل عليه، وقال للقوم: ادنوا، وكان موسىٰ إذا كلمه ربُّه وقع علىٰ جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضُرِب دونَه الحجاب، ودنا القوم، حتىٰ إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودًا، فسمِعوه(٢) وهو يُكلم موسىٰ، يأمره وينهاه، افعل ولا تفعل، فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسىٰ الغمام، فأقبل إليهم فقالوا لموسىٰ: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾، فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة فافتُلِتت أرواحهم فماتوا، وقام موسىٰ يناشد ربه ويدعوه ويَرغب إليه ويقول: ﴿رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّـٰيَ﴾.(٣)

فإن قيل: فما مقصودُ موسىٰ بقوله: ﴿لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ﴾؟

فقد ذُكِر فيه وجوه:

فقال السُّدِّي: لما ماتوا قام موسىٰ يبكي ويقول: ربِّ، ماذا أقول لبني

---

(١) أي السحاب.

(٢) أي الله تعالىٰ.

(٣) روىٰ كلام ابن أسحاق المتقدم ابن جرير (رحمه الله) في تفسير الآية ٥٦ من سورة البقرة، وقد ضبطت النص منه.

إسرائيل إذا أتيتُهم وقد أهلكتَ خيارهم.

وقال ابن إسحاق: اخترتُ منهم سبعين رجلًا الخيِّر فالخيِّر، أَرجع إليهم وليس معي منهم رجل واحد؟ فما الذي يُصدقوني به أو يأمنوني عليه بعد هذا؟

وعلىٰ هذا فالمعنىٰ لو شئتَ أهلكتهم من قبلِ خروجنا، فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهمونني.

وقال الزجاج: المعنىٰ: لو شئت أمتَّهم من قبل أن تبتليهم بما أَوجب عليهم الرجفة.

قلت: وهؤلاء كلهم حامُوا حول المقصود، والذي يظهر - والله أعلم بمراده ومراد نبيه - أن هذا استعطاف من موسىٰ (عليه السلام) لربه وتوسل إليه بعفوه عنهم من قَبل، حِين عَبد قومُهم العِجل ولم ينكروا عليهم، يقول موسىٰ: إنهم قد تقدم منهم ما يقتضي هلاكهم، ومع هذا فَوَسِعَهم عفوُك ومغفرتُك ولم تهلكهم، فَلْيَسَعْهُم اليوم ما وَسَعَهُم من قبل.

وهذا كما يقول مَن واخذه سَيِّدُهُ بِجرمٍ: لو شئتَ واخذتني من قبل هذا بما هو أعظم من هذا الجرم، ولكن وسِعني عفوك أوَّلًا، فليسعني اليوم.

ثم قال نبي الله: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾، فقال ابن الأنباري وغيرُه: هذا

استفهام علىٰ معنىٰ الجحد، أي لست تفعل ذلك، والسفهاء هنا عَـبَدَةُ العجل.

قال الفراء: ظنَّ موسىٰ أنهم أُهلكوا باتخاذ قومهم العِجل، فقال: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾، وإنما كان إهلاكهم بقولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾، ثم قال: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾، وهذا من تمام الاستعطاف، أي ما هي إلا ابتلاؤك واختبارك لعبادك، فأنت ابتليتهم وامتحنتهم، فالأمر كلُّه لك وبيدك، لا يكشفه إلا أنت، كما لم يمتحن به ويختبر به إلا أنت، فنحن عائذون بك منك، ولاجئون منك إليك.

فصلٌ، ومِن تلاعب الشيطان بهذه الأمة وكيدِهِ لهم أنهم قيل لهم وهم مع نبيهم والوحي ينـزِل عليه من الله تعالىٰ: ﴿ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾، قال قتادة وابن زيد والسُّدِّي وابن جرير وغيرهم: هي قرية بيت المقدس.

﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا﴾، أي هنيئًا واسعًا، ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾، قال السُّدِّي: هو باب من أبواب بيت المقدس.

وكذلك قال ابن عباس، قال: والسجود بمعنىٰ الركوع، وأصل السجود الانحناء لمن تُعظِّمُهُ، فكل مُنحنٍ لشيء معظِّمًا له فهو ساجد. قاله ابن جرير وغيره.

قلت: وعلىٰ هذا فانحناء المتلاقِيَين عند السلام أحدهما لصاحبه من السجود المحرَّم، وفيه نَهي صريح عن النبي (صلىٰ الله عليه وسلم).[١]

---

(١) جاء النهي عن الانحناء عند السلام في حديث رواه الترمذي (٢٧٢٨) وابن ماجه (٣٧٠٢) =

ثم قيل لهم: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾، أي حُطَّ عنا خطايانا، هذا قول الحسن وقتادة وعطاء.

وقال عكرمة وغيره: أي قولوا: «لا إلٰه إلا الله».

وكأنَّ أصحاب هذا القول اعتبروا الكلمة التي تُحطُّ بها الخطايا، وهي كلمة التوحيد.

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: أُمِروا بالاستغفار.

وعلىٰ القولين فيكونون مأمورين بالدخول بالتوحيد والاستغفار، وضُمِنَ لهم بذلك مغفرة خطاياهم.

فتلاعبَ الشيطانُ بهم، فبدَّلوا قولًا غير الذي قيل لهم، وفعلًا غير الذي أُمروا به، فروىٰ البخاري في «صحيحه» ومسلم أيضًا من حديث همام بن مُـنبِّـه عن أبي هريرة (رضي الله تعالىٰ عنه) قال: قال رسول الله (صلىٰ الله عليه وسلم): قيل لبني إسرائيل: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾، فبدَّلوا فدخلوا الباب يزحفون علىٰ أَستاهِهِم، وقالوا: (حبَّة في شعرة).[1]

=

عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: قال رجل: الرجل منا يلقىٰ صاحبه أو صديقه أينحني له؟ قال: لا . والحديث صححه الألباني (رحمه الله).

(١) رواه البخاري (٣٤٠٣، ٤٦٤١) ومسلم (٣٠١٥).

فبدَّلوا القول والفعل معًا، فأنزل الله عليهم رجزًا من السماء.

قال أبو العالية: هو الغضب.

وقال ابن زيد: هو الطاعون.

وعلىٰ هذا فالطاعون بالرَّصَد لمن بدل دين الله قولًا وعملًا.

فصلٌ، ومِن تلاعب الشيطان بهم أنهم كانوا في البريَّة قد ظُـلِّلَ عليهم الغمام، وأُنزِل عليهم المَنُّ والسلوىٰ، فملُّوا ذلك، وذكروا عيش الثوم والبصل والعدس والبقل والقِثَّاء، فسألوه موسىٰ (عليه السلام)، وهذا من سوء اختيارهم لأنفسهم، وقلة بصرهم بالأغذية النافعة الملائمة، واستبدال الأغذية الضارة القليلة التغذية منها، ولهذا قال لهم موسىٰ (عليه السلام): ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾، أي مِصرًا من الأمصار، ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾، فكانوا في أفسح الأمكنة وأوسعها وأطيبِها هواء، وأبعدها عن الأذىٰ ومجاورة الأنتان والأقذار، سقفُهم الذي يظلهم من الشمسِ الغمامُ، وطعامهم السلوىٰ، وشرابهم المَن.

قال ابن زيد: كان طعام بني إسرائيل في التِّيهِ واحدًا وشرابهم واحدًا، كان شرابهم عسلًا ينزل من السماء يقال له: المَنُّ، وطعامهم طيرٌ يقال له: السلوىٰ، يأكلون الطير ويشربون العسل، لم يكن لهم خبز ولا غيره، ومعلوم فضل هذا الغذاء والشراب علىٰ غيرهما من الأغذية والأشربة، وكانوا مع ذلك يتفجر لهم من

الحَجَرِ اثنتا عشر عينًا من الماء، فطلبوا الاستبدال بما هو دون ذلك بكثير، فذُمُّوا علىٰ ذلك، فكيف بمن استبدل الضَّلال بالهدىٰ، والغيَّ بالرشاد، والشركَ بالتوحيد، والسنةَ بالبدعة، وخدمة الخالق بخدمة المخلوق[١]، والعيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار الله تعالىٰ بحظِّهِ مِنَ العيشِ النَّكِدِ الفاني في هذه الدار.

فصلٌ، ومِن تلاعبه بهم أنهم لما عُرِضت عليهم التوراة لم يقبلوها وقد شاهدوا من الآيات ما شاهدوه، حتىٰ أمَر الله سبحانه جبريل فقلع جبلًا من أصله علىٰ قدرِهم ثم رفعه فوق رؤوسهم، وقيل لهم: إن لم تقبلوها ألقيناه عليكم، فقبِلوها كُرهًا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

قال عبد الله بن وهب: قال ابن زيد: لما رجع موسىٰ من عند ربه بالألواح قال لبني إسرائيل: إن هذه الألواح فيها كتاب الله وأمرُه الذي أمركم به، ونهيُه الذي نهاكم عنه.

فقالوا: ومن يأخذ بقولك أنت؟ لا والله حتىٰ نرىٰ الله جهرةً، حتىٰ يطلُعَ الله إلينا فيقول: هذا كتابي فخذوه، فما له لا يكلمنا كما كلَّمك أنت يا موسىٰ، فيقول: هذا كتابي فخذوه.

---

(١) يعني (رحمه الله) بخدمة الخالق أي طاعته وامتثال أمره، وليس القيام به، إذ الخالق ليس بحاجة إلىٰ من يخدمه، بل هو القيوم سبحانه، أي القائم بخلقه.

فجاءت غضبةٌ من الله تعالىٰ، فجاءتهم صاعقة فصعَقتهم فماتوا أجمعون.

قال: ثم أحياهم الله تعالىٰ بعد موتهم، فقال لهم موسىٰ: خذوا كتاب الله.

فقالوا: لا.

فقال: أيُّ شيء أصابكم؟

قالوا: مُتنا ثم حيِينا.

فقال: خذوا كتاب الله.

قالوا: لا.

قال: فبعث الله ملائكته فنَـتَقت الجبل فوقهم، فقيل لهم: أتعرفون هذا؟

قالوا: نعم، الطور.

قال: خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم.

قال: فأخذوه بالميثاق.

وقال السُّدِّي: لـما قال الله تعالىٰ لـهم: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾، فأبوا أن يسجدوا، فأمر الله الجبل أن يرتفع فوق رؤوسهم، فنظروا إليه وقد غشِيهم، فسقطوا سُجَّدًا علىٰ شِقٍّ ونظروا بالشِّقِّ الآخر، فكشفه عنهم، ثم تولوا من بعد هذه الآيات وأعرضوا ولم يعملوا بما في كتاب الله، ونبذوه وراء

ظهورهم، فقال تعالىٰ مُذكِّرًا لهؤلاء بما جرىٰ من أسلافهم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

فصلٌ، ومن تلاعبه بهم أن الله سبحانه أنجاهم من فرعون وسلطانه وظلمه، وفَرَق بهم البحر(١)، وأراهم الآيات والعجائب، ونصرهم وآواهم وأعزَّهم وآتاهم ما لم يؤتِ أحدًا من العالمين، ثم أمرهم أن يدخلوا القرية التي كتب الله لهم، وفي ضمن هذا بِشارتُهم بأنهم منصورون ومفتوح لهم، وأن تلك القرية لهم، فأبوا طاعته وامتثال أمرِه، وقابلوا هذا الأمر والبشارة بقولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾، وتأمل تَلطُّفَ نبيِّ الله تعالىٰ موسىٰ (عليه السلام) بهم، وحسنَ خطابِه لهم، وتذكيرهم بنعم الله عليهم، وبِشارتَهم بوعد الله لهم بأن القريةَ مكتوبةٌ لهم، ونهيَهم عن معصيتِه بارتدادهم علىٰ أدبارهم، وأنهم إن عصوا أمره ولم يمتثلوا انقلبوا خاسرين، فجمع لهم بين الأمر والنهي، والبِشارة والنِّذارة، والترغيب والترهيب، والتذكير بالنعم السالفة، فقابلوه أقبح المقابلة، فعارضوا أمر الله تعالىٰ بقولهم: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّٰرِينَ﴾، فلم يُوَقِّروا رسولَه وكليمه حتىٰ نادوه باسمه، ولم يقولوا: يا نبي الله، وقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّٰرِينَ﴾، ونسوا قُدرةَ جبار السماوات

---

(١) أي جعله فِرقتين.

والأرض، الذي يُذل الجبابرة لأهل طاعته، وكان خوفُهم من أولئك الجبارين الذين نواصيهم بيد الله أعظمَ من خوفِهم من الجبار الأعلىٰ سبحانه، وكانوا أشد رهبة في صدورهم منه، ثم صرَّحوا بالمعصية والامتناع من الطاعة فقالوا: ﴿لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾، فأكدوا معصيتهم بأنواع من التأكيد:

أحدها: تمهيدُ عذرِ العصيان بقولهم: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ﴾، **والثاني**: تصريحهم بأنهم غير مطيعين، وصدَّروا الجملة بحرف التأكيد وهو (إنَّ)، ثم حققوا النفي بأداة (لن) الدالة علىٰ نفي المستقبل، أي لا ندخلُها الآن ولا في المستقبل، ثم علَّقوا دخولها بشرط خروج الجبارين منها، فقال لهم رجلان من الذين أنعم الله عليهما بطاعته والانقياد إلىٰ أمره، مِنَ الذين يخافون الله، هذا قول الأكثرين، وهو الصحيح.

وقيل: مِنَ الذين يخافونهم من الجبارين، أسلَما واتَّبَعا موسىٰ (عليه السلام).

﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾، أي باب القرية، فاهجموا عليهم فإنهم قد مُلِئوا منكم رعبًا، ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ﴾.

ثم أرشدهم إلىٰ ما يحقق النصر والغلبة لهم وهو التوكل، فكان جواب القوم أن ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾، فسبحان من عَظُمَ حِلمه حيث يُقابَل أمرُهُ بمثل هذه المقابلة، ويُواجَهُ رسولُهُ بمثل هذا الخطاب، وهو يحلُمُ عنهم ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل

وسِعَهم حلمُه وكرمُه، وكان أقصىٰ ما عاقبهم به أن ردَّدهم في برية التِّيهِ أربعين عامًا، يُظَلِّلُ[(١)] عليهم الغمام من الحر، ويُنزِّلُ عليهم المنَّ والسلوىٰ.

وفي «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: شهِدتُ من المقداد بن الأسود مشهدًا لأَن أكون صاحبَه أحبَّ إلي مما عُدِلَ به[(٢)]؛ أتىٰ النبي (صلىٰ الله عليه وسلم) وهو يدعو علىٰ المشركين فقال: لا نقول لك كما قال قوم موسىٰ لموسىٰ: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفَك.

فرأيت النبي (صلىٰ الله عليه وسلم) أشرق وجهُه وسَرَّه[(٣)].[(٤)]

فلما قابلوا نبي الله بهذه المقابلة قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۗ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾.

فصلٌ، ومن تلاعبه بهم في حياة نبيهم أيضًا ما قصه الله سبحانه وتعالىٰ في

---

(١) في المطبوع (يُـظِل)، وما أثبته من نسخة (علي).

(٢) أي لَأَن أكون صاحب ذلك الموقف أحبُّ إلي من كل شيء، والمراد التنبيه إلىٰ عَظمة ذلك المشهد. انتهىٰ الغرض من كلام ابن حجر عليه في «فتح الباري».

(٣) أي سرَّهُ كلام المقداد.

(٤) رواه البخاري (٣٩٥٢)، وأما مسلم فلم يروه، فلعل المؤلف وهِم (رحمه الله).

كتابه من قصة القتيل الذي قتلوه وتدافعوا فيه[١]، حتىٰ أُمِروا بذبح بقرة وضربه ببعضها، وفي القصة أنواع من العبر، منها:

أن الإِخبار بها من أعلام نبوة رسول الله (صلىٰ الله عليه وسلم)[٢].

ومنها، الدِّلالة علىٰ نبوة موسىٰ، وأنه رسول رب العالمين.

ومنها، الدلالة علىٰ صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولِـهم إلىٰ خاتَـمِهم، من معاد الأبدان وقيام الموتىٰ من قبورهم.

ومنها، إثبات الفاعل الـمختار، وأنه عالمٌ بكل شيء، قادرٌ علىٰ كل شيء، عدلٌ لا يجوز عليه الظلم والجور، حكيمٌ لا يجوز عليه العبث.

ومنها، إقامة أنواع الآيات والبراهين والـحجج علىٰ عباده بالطرق الـمتنوعات، زيادةً في هداية المهتدي، وإعذارًا وإنذارًا للضُّلال.

ومنها، أنه لا ينبغي مقابلة أمر الله تعالىٰ بالتَّعنُّتِ[٣] وكثرة الأسئلة، بل يبادر إلىٰ الامتثال، فإنهم لما أُمِروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلىٰ الامتثال بذبح أي بقرة اتَّفقت، فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه ولا

---

(١) تدافعوا فيه أي أن كل واحد دفع عن نفسه تهمة القتل واتهم بها غيره.

(٢) أي محمد (صلىٰ الله عليه وسلم).

(٣) التعنت هو التشدد وتصعيب الأمور وتعقيدها. انظر «المعجم الوسيط».

إشكال، بل هو بمنزلة قوله: (اعتِق رقبة، وأطعِم مسكينًا، وصُم يومًا)، ونحوِ ذلك، ولذلك غلط من احتج بالآية علىٰ جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، فإن الآية غَنِيَّةٌ عن البيان المنفصل، مبيَّنةٌ بنفسها، ولكن لما تعنَّتوا وشدَّدوا شُدِّد عليهم.

قال أبو جعفر بن جرير عن الربيع عن أبي العالية: لو أن القوم حين أُمِروا أن يذبحوا بقرة استعرَضوا بقرةً من البقر فذبحوها لكانت إياها، ولكنهم شدَّدوا علىٰ أنفسهم فشدَّد الله عليهم.

ومنها، أنه لا يجوز مقابلة أمرِ الله - الذي لا يَعلم المأمورُ به[1] وجهَ الحكمةِ فيه - بالإنكار، وذلك نوع من الكفر، فإن القوم لما قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾؛ قابلوا هذا الأمر بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗا﴾، فلما لم يعلموا وجهَ الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سألوه عنه قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗا﴾، وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله، فإنه أخبرهم عن أمرِ الله لهم بذلك ولم يكن هو الآمرَ به، ولو كان هو الآمر به لم يجُز لِمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك، فلما قال لهم: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧﴾، وتيقَّنوا أن الله سبحانه أمره بذلك؛ أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عَيْنها ولونها، فلما أُخبروا عن ذلك رجعوا إلىٰ السؤال مرة ثالثة عن عينها، فلما تعيَّنت لهم ولم يبق

(١) المأمور به هو العبد المكلف.

إشكال توقفوا في الامتثال ولم يكادوا يفعلون.

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم قولُهم لنبيهم: ﴿ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾، فإنْ أرادوا بذلك أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة فتلك رِدةٌ وكفرٌ ظاهر، وإن أرادوا أنك الآن بيَّنت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها فذلك جهل ظاهر، فإن البيان قد حصل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾، فإنه لا إجمال في الأمر ولا في الفعل ولا في المذبوح، فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة، قال محمد بن جرير:

وقد كان بعض من سَلَفَ يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم وكفروا بقولهم لموسىٰ: ﴿ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾، وزعَم أن ذلك نفيٌ منهم أن يكون موسىٰ (عليه السلام) أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك، وأن ذلك كفر منهم، قال[1]: وليس الأمر كما قال عندنا، لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قولهم الذي قالوا لموسىٰ جهْلةً منهم وهفوةً من هفواتهم.

فصلٌ، ومنها الإخبار عن قساوة قلوب هذه[2] الأمة وغِلَظِها وعدم تمكن الإيمان فيها، قال عبد الصمد بن معقِل عن وهب: كان ابن عباس يقول: إن القومَ بعد أن أحيا الله تعالىٰ الميت فأخبرهم بقاتِله أنكروا قتله، وقالوا: (والله ما

---

(١) أي ابن جرير الطبري.

(٢) كلمة (هذه) ليست عند عزير، والمثبت من نسخة علي.

قتلناه) بعد أن رأوا الآية[١] والحق، قال الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

ومنها مقابلة الظالم الباغي بنقيضِ قصده شرعًا وقدَرًا، فإن القاتل قصْدُهُ ميراث المقتول ودفع القتل عن نفسه، ففضحه الله تعالىٰ وهتَكه وحرمَهُ ميراثَ المقتول.

ومنها أن بني إسرائيل فُتنوا بالبقرة مرتين من بين سائر الدواب، ففُتنوا بعبادة العجل وفُتنوا بالأمر بذبح البقرة، والبقرُ من أبلد الحيوان حتىٰ لَيُضرب به المثل.

والظاهر أن هذه القصة كانت بعد قصة العِجل، ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه علىٰ أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي لا يصلُح أن يكون إلٰهًا معبودًا من دون الله تعالىٰ، وأنه إنما يَصلُح للذبح والحرث والسقي والعمل.

فصلٌ، ومن تلاعبه بهذه الأمة أيضًا ما قصه الله سبحانه علينا من قصة أصحاب السَّبت، حين مسخهم قردة لما تحيَّلوا علىٰ استحلال محارمه، ومعلوم أنهم كانوا يعصون الله تعالىٰ بأكل الحرام واستباحة الفروج الحرام والدم الحرام، وذلك أعظم إثمًا من مجرد العمل يوم السبت، ولكن لما استحلوا محارمَ الله تعالىٰ بأدنىٰ الحِيل وتلاعبوا بدينه وخادعوه كمخادعة الصبيان ومسخوا دينه بالاحتيال؛

---

(١) يعني بالآية إحياء الميت الذي أنبأ بقاتله.

مسخهم الله قردة، وكان الله سبحانه قد أباح لهم الصيد في كل أيام الأسبوع إلا يومًا واحدًا، فلم يدَعْهم حرصُهم وجشَعُهم حتىٰ تعدَّوا إلىٰ الصيد فيه، وساعدَ القدَرُ بأن عوقبوا بإمساك الحيتان عنهم في غير يوم السبت وإرسالها عليهم يوم السبت، وهكذا يفعلُ الله سبحانه بمن تعرَّض لمحارمه، فإنه يرسلُها عليه بالقدَر، حتىٰ تزدلفَ[١] إليه بأيِّها يبدأ، فانظر ما فعل الحرصُ وما أوجب من الحرمان بالكُلِّية، ومن هٰهنا قيل: مَن طلبه كلَّه فاته كلَّه.

فصلٌ، ومن تلاعب الشيطان بهم أيضًا أنهم لما حُرِّمت عليهم الشحوم أذابوها ثم باعوها وأكلوا أثمانها، وهذا من عدم فقههم وفَهمهم عن الله تعالىٰ دينَه، فإن أثمانها بدلٌ منها، فتحريمها تحريم لبدلها والمعاوضة عنها، كما أن تحريم الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير يتناول تحريم أعيانها وأبدالها.

ومن تلاعبه بهم أيضًا اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، وقد لعنهم رسول الله (صلىٰ الله عليه وسلم) علىٰ ذلك، ولعنتُهُ تتناول من فَعَـل فِعلَهم.[٢]

ومن تلاعبه بهم أيضًا أنهم كانوا يَقتلون الأنبياء الذين لا تُنال الهداية إلا

---

(١) أي تتقرب.

(٢) من ذلك حديث زيد بن ثابت (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلىٰ الله عليه وسلم) قال: لعن الله اليهود، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

رواه أحمد (٥/ ١٨٤، ١٨٦)، وقال محققو المسند: صحيح لغيره.

علىٰ أيديهِم[١]، ويتخذون أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله تعالىٰ، يُحرِّمون عليهم ويُحِلُّون لهم، فيأخذون بتحريمهم وتحليلهم ولا يلتفتون؛ هل ذلك التحريم والتحليل من عند الله تعالىٰ أم لا.

قال عَدي بن حاتم: أتيتُ رسول الله (صلىٰ الله عليه وسلم) وهو يقرأ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾، فقلت: يا رسول الله: ما عبدوهم.

فقال: حرَّموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، فكانت تلك عبادتهم إياهم. رواه الترمذي وغيره.[٢]

وهذا من أعظم تلاعب الشيطان بالإنسان، أن يَقتُل أو يُقاتل مَن هُداه علىٰ

---

(١) آخر من قتلوا من الأنبياء هو نبينا محمد (صلىٰ الله عليه وسلم)، حين أهدت له امرأة من خيبر شاة فدست السم فيها، فأثر فيه حتىٰ مات.

(٢) رواه الترمذي (٣٠٩٥)، والبيهقي (١٠/ ١١٦) وغيرهما، وصححه ابن تيمية (رحمه الله) كما في «المجموع» (٧/ ٦٧)، والألباني بشواهده في «الصحيحة» (٣٢٩٣)، وهذا تمام لفظ البيهقي: أتيت النبي (صلىٰ الله عليه وسلم) وفي عنقي صليب من ذهب، قال: فسمعته يقول: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

قال: قلت: يا رسول الله، إنهم لم يكونوا يعبدونهم.

قال: أجل، ولكن يُحِلون لهم ما حرم الله فيستحلونه، ويُحرمون عليهم ما أحل الله فيُحرمونه، فتلك عبادتهم لهم.

يده، ويتَّخذَ من لم تُضمن له عصمته نِدًّا لله، يُحرِّمُ عليه ويُحلِّل له.

ومن تلاعبه بهم ما كان منهم في شأن زكريا ويحيىٰ (عليهما السلام) وقتلِهم لهما، حتىٰ سلَّط الله عليهم بختنصر وسنجاريب(١) وجنودهما، فنالُوا منهم ما نالوه.

ثم كان منهم في شأن المسيح ورميِه وأمِّه بالعظائم، وهم يعلمون أنه رسول الله تعالىٰ إليهم، فكفروا به بغيًا وعنادًا، ورامُوا قتله وصلبه، فصانه الله تعالىٰ من ذلك ورفَعه إليه وطهَّره منهم، فأوقعوا القتل والصلب علىٰ شِبْهِهِ وهم يظنون أنه رسولُ اللهِ عيسىٰ (صلىٰ الله عليه وسلم)، فانتقم الله تعالىٰ منهم ودمَّر عليهم أعظم تدمير، ولَزِمَهُمْ كلَّهم حكم الكفر بتكذيبهم بالمسيح كما لَزِمَ النصارىٰ معهم حكمُ الكفر بتكذيبهم بمحمد (صلىٰ الله عليه وسلم).

ولم يزل أمر اليهود بعد تكذيبهم بالمسيح وكفرهم به في سِفالٍ ونقصٍ إلىٰ أن قطَّعهم الله تعالىٰ في الأرض أممًا، ومزَّقهم كل ممزق، وسلَبهم عِزَّهم وملكهم، فلم يقُم لهم بعد ذلك مُلكٌ، فلما بعث الله تعالىٰ محمدًا (صلىٰ الله

---

(١) انظر قصة تسليط الله بختنصر وسنجاريب وجنودهما علىٰ اليهود في تفسير ابن جرير لسورة الإسراء عند قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥﴾.

عليه وسلم) فكفروا به وكذبوه **أتم عليهم غضبَه ودمرهم غاية التدمير**، وألزمهم ذلًّا وصَغارًا[١] لا يُرفعُ عنهم إلىٰ أن ينزلَ أخوه المسيح من السماء، فيستأصلَ شأفتهم ويُطهِّر الأرض منهم ومن عُبَّاد الصليب، قال تعالىٰ: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

فالغضب الأول بسبب كفرهم بالمسيح، والغضب الثاني بسبب كفرهم بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما.[٢]

فصلٌ، ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة أن ألقىٰ إليهم أن الرب سبحانه وتعالىٰ محجور عليه[٣] في نسخ الشرائع، فحَجروا عليه أن يفعلَ ما يشاء ويحكمَ ما يريد، وجعلوا هذه الشبهة الشيطانية تُرسًا[٤] لهم في جحد نبوة رسول الله (صلىٰ الله عليه وسلم)، وقرَّروا ذلك بأن النسخ يستلزم البَداء[٥]،

---

(١) الصَّغار هو الذل. انظر «النهاية».

(٢) ولهذا سمىٰ الشيخ ابن القيم (رحمه الله) أمة اليهود بالأمة الغضبية.

(٣) الحَجْر هو المنع من التصرف. انظر «النهاية».

(٤) الترس في الأصل آلة مستديرة يتوقىٰ بها الجندي ضربات الأعداء في الحرب. انظر «المعجم الوسيط».

(٥) البداء هو ظهور الرأي وبدُوِّهِ بعد أن لم يكن، واليهود يرُدُّون نسخ الشرائع الشابقة بشريعة الإسلام زعمًا منهم أن ذلك يستلزم أن الله بدَا له هذا الرأي ولم يكن يعلمه من قبل. انظر =

وهو علىٰ الله تعالىٰ مُحال.

وقد أَكْذبهم الله سبحانه في نص التوراة كما أكذبهم في القرآن، قال الله تعالىٰ: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩٤ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٥﴾.

فتضمَّنت هذه الآيات بيان كذِبهم صريحًا في إبطال النسخ، فإنه سبحانه وتعالىٰ أخبر أن الطعام كلَّه كان حِلًّا لبني إسرائيل قبل نزول التوراة سِوىٰ ما حرَّم إسرائيل علىٰ نفسه منه، ومعلومٌ أن بني إسرائيل كانوا علىٰ شريعة أبيهم إسرائيل وملَّته، وأن الذي كان لهم حلالًا إنما كان بإحلال الله تعالىٰ له علىٰ لسانِ إسرائيلَ والأنبياءِ بعده إلىٰ حين نزول التوراة، ثم جاءت التوراة بتحريم كثير من المآكل عليهم التي كانت حلالًا لبني إسرائيل، وهذا محضُ النسخ.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُ﴾، متعلقٌ بقوله: ﴿كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، أي كان لهم حلالًا قبل نُزول التوراة وهم يعلمون ذلك، ثم قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾، هل تجدون فيها أن

=

«التعريفات» للجرجاني.

إسرائيل حرَّم علىٰ نفسه ما حرَّمَته التوراة عليكم، أم تجدون فيها تحريم ما خصَّه بالتحريم، وهو لحوم الإبل وألبانُها خاصة؟

وإذا كان إنما حرَّم هذا وحده، وكان ما سواه حلالًا له ولِـبَـنيه، وقد حَرَّمت التوراة كثيرًا منه؛ ظَهر كذبكم وافتراؤكم في إنكار نسخ الشرائع والحَجرِ علىٰ الله تعالىٰ في نسخها.

فتأمل هذا الموضع الشريف الذي حام حوله أكثر المفسرين وما أوردوه.

وهذا أولىٰ من احتجاج كثير من أهل الكلام عليهم بأن التوراة حَرَّمت أشياء كثيرة من المناكح والذبائح والأفعال والأقوال، وذلك نسخ لحكم البراءة الأصلية[١]، فإن هذه المناظرة ضعيفة جدًّا، فإن القوم لم يُنكروا رفع البراءة الأصلية بالتحريم والإيجاب، إذ هذا شأنُ كل الشرائع، وإنما أنكروا تغيير ما أباحه الله تعالىٰ فيجعلُه حرامًا، أو تحليل ما كان حرَّمه فيجعلُه مباحًا، وأما رفع البراءة والاستصحاب[٢] فلم يُنكره أحد من أهل الملل.

---

(١) أي البراءة من التحريم والإيجاب حتىٰ ينص الشرع بذلك، كالبراءة من إيجاب الزكاة إلىٰ أن ورد الشرع بإيجابها، والبراءة من تحريم الخمر إلىٰ أن ورد الشرع بتحريمها.

(٢) الاستصحاب في اصطلاح الأصوليين هو استبقاءُ حكمٍ ثبت في الزمن الماضي للزمن الحاضر والمستقبل ما لم يطرأ الحدَث عليه، سواء كان الحكم حرامًا أو حلالًا، فكأن الحكم بقِي مستصحبًا من الماضي إلىٰ الحاضر ثم إلىٰ المستقبل، وضده رفع البراءة، أي رفع بقاء الحكم،

ثم يقال لهذه الأمة الغضبية: هل تُقِـرُّون أنه كان قبل التوراة شريعة أم لا، فهم لا ينكرون أن يكون قبل التوراة شريعة؟

فيقال لهم: فهل رفَعَتْ التوراةُ شيئًا من أحكام تلك الشرائع المتقدمة أم لا؟

فإن قالوا: لم تَرفع شيئًا من أحكام تلك الشرائع فقد جاهروا بالكذب والبَهت، وإن قالوا: قد رَفَـعت بعض الشرائع المتقدمة فقد أقرُّوا بالنسخ قطعًا.

وأيضًا فيقال للأمة الغضبية: هل أنتم اليوم علىٰ ما كان عليه موسىٰ (عليه السلام)؟

فإن قالوا: (نعم) قلنا: أليس في التوراة أنَّ من مسَّ عظم ميتٍ أو وطِئ قبرًا أو حضر ميتًا عند موته فإنه يصير من النجاسة بحالٍ لا مخرج له منها إلا رمادَ البقرة التي كان الإمام الهاروني[1] يَحرِقها؟

فلا يمكنهم إنكار ذلك.

فيقال لهم: فهل أنتم اليوم علىٰ ذلك؟

=

وكلاهما لا يقول به أحد من أهل الملل – كما قال ابن القيم –، فإنه لا بد كلما استجدت شريعة أن تحرِّم أمورًا كانت حلالًا وتحلِّل أمورًا كانت حرامًا. انظر «إرشاد الفحول إلىٰ تحقيق الحق من علم الأصول» (٢/ ٩٧٤)، الناشر: دار الفضيلة – الرياض، للشوكاني (رحمه الله).

(١) يعني بالهاروني مَن كان من نسل هارون عليه السلام.

فإن قالوا: (لا نقدِر عليه)؛ فيقال لهم: فلِم جعلتم أنَّ من لمس العظمَ والقبرَ والميتَ طاهرًا[١] يصلح للصلاة، والذي في كتابكم خلافه؟

فإن قالوا: (لأنا عَدِمنا أسباب الطهارة وهي رماد البقرة، وعَدِمنا الإمام المُطهِّر المستغفر)؛ فيقال لهم: فهل أغناكم عدمُهُ عن فعله أو لم يغنكم؟

فإن قالوا: (أغنانا عَدمُه عن فعله؛ قيل لهم: فقد تبدَّل الحكم الشرعي من الوجوب إلىٰ إسقاطه لمصلحة التَّعذر)؛ فيقال: وكذلك يتبدل الحكم الشرعي بنَسخه لمصلحة النسخ، فإنكم إن بنيتم علىٰ اعتبار المصالح والمفاسد في الأحكام فلا ريب أن الشيء يكون مصلحةً في وقت دون وقت وفي شريعة دون أخرىٰ، كما كان تزويج الأخ بالأخت مصلحة في شريعة آدم (عليه السلام) ثم صار مفسدة في سائر الشرائع، وكذلك إباحة العمل يوم السبت كان مصلحةً في شريعة إبراهيم (عليه السلام) ومَن قبلَه، مفسدةً[٢] في شريعة موسىٰ (عليه السلام)، وأمثال ذلك كثيرة.

وإن منعتم مراعاة المصالح في الأحكام ومنعتم تعليلها بها فالأمر حينئذ أظهر، فإنه سبحانه يُحلل ما يشاء ويُحرم ما يشاء، والتحليل والتحريم تبعٌ لمجرد مشيئته، لا يُسأل عما يفعل.

---

(١) أي يكون طاهرًا، يمكنه أن يصلي.

(٢) التقدير: وكان مفسدةً في شريعة موسىٰ عليه السلام.

وإن قلتم: لا نستغني في الطهارة عن ذلك الطُّهور الذي كان عليه أسلافنا؛ فقد أقررتم بأنكم الأنجاس أبدًا، ولا سبيل لكم إلىٰ حصول الطهارة.

فإن قالوا: (نَعم، الأمر كذلك)؛ قيل لهم: فإذا كنتم أنجاسًا علىٰ مقتضىٰ أصولكم فما بالكم تعتزلون الحائض بعد انقطاع الحيض وارتفاعه سبعة أيام اعتزالًا تخرجون فيه إلىٰ حَدٍّ لو أن أحدكم لَمَس ثوبه ثوب المرأة نـجَّستموه مع ثوبه؟

فإن قلتم: (ذلك من أحكام التوراة)؛ قيل لكم: أليس في التوراة أن ذلك يُراد به الطهارة، فإذا كانت الطهارة قد تعذَّرت عندكم، والنجاسة التي أنتم عليها لا ترتفع بالغسل؛ فهي إذًا أشدُّ من نجاسة الحيض.

ثم إنكم ترون أن الحائض طاهر إذا كانت من غير ملتكم، ولا تخشون من لمسها ولا الثوب الذي تلمَسُه، فتخصيص هذا الأمر بطائفتكم ليس في التوراة.

فصلٌ، قالت الأمة الغضبية: التوراة قد حظَرت أمورًا كانت مباحة مِن قَبل ولم تأت بإباحة محظور، والنسخ الذي نُنكره ونمنعُ منه هو ما أوجب إباحةَ محظور، لأن تحريم الشيء إنما هو لأجل ما فيه من المفسَدة، فإذا جاءت شريعة بتحريمه كان ذلك من مؤكداتها ومُقرِّراتها، فإذا جاء مَن أباحه علِمنا بإباحته الـمُفسِدة أنه غيرُ نبي، بخلافِ تحريم ما كان مباحًا، فإنَّا نكون متَعبِّدين بتحريمه.

قالوا: وشريعتكم جاءت بإباحة كثير مما حرمته التوراة، مع أنه إنما حُرِّم لما فيه من المفسدة.

فهذه النكتة هي التي تعتمد عليها الأمة الغضبية ويتلقَّاها خالِفٌ منهم عن سالفٍ، والمُتكلمون لم يُشفوهم في جوابها[١]، وإنما أطالوا معهم الكلام في رفع البراءة الأصلية بالشرائع وفي نسخ الإباحة بالتحريم.

ولَعَمرُ الله إنه لمما يُبطِل شبهتهم، لأنَّ رفع البراءة الأصلية ورفع الإباحة بالتحريم هو تغييرٌ لما كان عليه الحكم الاستصحابي أو الشرعي بحكم آخر لمصلحةٍ اقتضت تغييرَه، ولا فرق في اقتضاء المصلحة بين تغيير الإباحة بالتحريم أو تغيير التحريم بالإباحة.

والشبهة التي عَرضت لهم في أحد الموضعين هي بعينها في الموضع الآخر، فإن إباحةَ الشيء في الشريعة تابعٌ لعدم مفسدته، إذ لو كانت فيه مفسدة راجحة لم تأت الشريعة بإباحته، فإذا حرَّمته الشريعة الأخرىٰ وجب قطعًا أن يكون تحريمُه فيها هو المصلحة كما كان إباحتُه في الشريعة الأولىٰ هي المصلحة، فإنْ تضمَّن إباحة المحرم في الشريعة الأولىٰ إباحة المفاسد - وحاشا لله - تَضمَّن تحريم المباح في الشريعة الأولىٰ تحريم المصالح، وكلاهما باطل قطعًا.

فإذا جاز أن تأتي شريعة التوراة بتحريم ما كان إبراهيم ومن تقدَّمه يستبيحُه؛ فجائز أن تأتي شريعة أخرىٰ بتحليل بعض ما كان في التوراة محظورًا.

---

(١) أي: لم يعطوهم جوابًا شافيًا.

وهذه الشبهة الباطلة الداحضة هي التي رَدَّت بها الأمة الغضبية نُـبُوة سيدنا محمد (صلىٰ الله عليه وسلم)، هي بعينها التي ردَّ بها أسلافُهم نبوةَ المسيح، وتوارثوها كافرًا عن كافر، وقالوا لمحمد (صلىٰ الله عليه وسلم) كما قال أسلافهم للمسيح: لا نُـقِـرُّ بنبوةِ مَن غَـيَّـر شريعةَ التوراة!

فيقال لهم: فكيف أقررتم لموسىٰ بالنبوة وقد جاء بتغيير بعضِ شرائعِ من تقدَّمه، فإنْ قَدَحَ ذلك[1] في المسيح ومحمد (عليهما الصلاة والسلام) قَدَحَ في موسىٰ، فلا تقدحون في نبوتهما بقادحٍ إلا ومثلَه في نبوة موسىٰ سواء، كما أنكم لا تُـثبتون نبوة موسىٰ ببرهان إلا وأضعافُه شاهد علىٰ نبوة محمد (صلىٰ الله عليه وسلم)، فمن أبينِ المحال أن يكون موسىٰ رسولًا صادقًا ومحمدٌ ليس برسول، أو يكون المسيح رسولًا ومحمد (صلىٰ الله عليه وسلم) ليس برسول.

ويقال للأمة الغضبية أيضًا: لا يخلو الـمُـحرَّم؛ إما أن يكون تحريمه لعينِه وذاتِه بحيث تمتنع إباحته في زمان من الأزمنة، وإما أن يكون تحريمه لما تضمَّنه من المفسدة في زمانٍ دون زمانٍ، ومكانٍ دون مكانٍ، وحالٍ دون حالٍ، فإن كان الأول؛ لزِم أن يكون ما حرَّمَته التوراة محرمًا علىٰ جميع الأنبياء في كل زمان ومكان، من عهد نوح إلىٰ خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وإن كان الثاني؛ ثبتَ أن التحريمَ والإباحةَ تابعان للمصالح، وإنما يختلفان

(١) أي تغيير الشرائع.

باختلاف الزمان والمكان والحال، فيكون الشيء الواحد حرامًا في ملة دون ملة، وفي وقت دون وقت، وفي مكان دون مكان، وفي حال دون حال، وهذا معلوم بالاضطرار من الشرائع، ولا يليق بحكمة أحكم الحاكمين غيرُ ذلك.

ألا ترىٰ أن تحريم السبت لو كان لِعينه لكان حرامًا علىٰ إبراهيم ونوح وسائر النبيين؟

وكذلك ما حرَّمته التوراة من المطاعم والمناكح وغيرها؛ لو كان حرامًا لعينِهِ وذاتِهِ لَـوَجَبَ تحريمه علىٰ كل نبي وفي كل شريعة.

وإذا كان الربُّ تعالىٰ لا حَجْرَ عليه، بل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ويبتلي عباده بما يشاء ويَحكم ولا يُحكم عليه، فما الذي يَحيلُ[1] عليه ويمنعه أن يأمرَ أمةً بأمر من أوامر الشريعة ثم ينهىٰ أمةً أخرىٰ عنه، أو يُحرِّم محرَّمًا علىٰ أمة ويبيحه لأمةٍ أخرىٰ، بل أيُّ شيء يمنعُهُ سبحانه أن يفعل ذلك في الشريعة الواحدة في وقتين مختلفين بحسب المصلحة، وقد بيَّن ذلك سبحانه وتعالىٰ بقوله: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧﴾؟

فأخبر سبحانه أن عموم قدرته ومُلكه وتصرفه في مملكته وخلقه لا يمنعه

---

(١) أي يستحيل.

أن ينسخَ ما يشاء ويُثبتَ ما يشاء، كما أنه يمحو من أحكامه القدرية الكونية ما يشاء ويُـثبت، فهكذا أحكامه الدينية الأَمرية ينسخ منها ما يشاء ويُثبت منها ما يشاء، فمِن أكفر الكفر وأظلم الظلم أن يُعارَض الرسولُ الذي جاء بالبينات والهدىٰ، وتُدفع نبوتُه، وتُـجحد رسالتُه، بكونه أتىٰ بإباحة بعضِ ما كان محرَّمًا علىٰ مَن قبله، أو بتحريمِ بعض ما كان مباحًا لهم، وبالله التوفيق، يُضل من يشاء ويهدي من يشاء.

ومن العجب أن هذه الأمة الغضبية تَـحْجُرُ علىٰ الله تعالىٰ أن ينسخ ما يشاء من شرائعه، وقد تركوا شريعة موسـىٰ (عليه السلام) في أكثر ما هم عليه، وتمسَّكوا بما شرعه لهم أحبارهم وعلماؤهم!

فمن ذلك أنهم يقولون في صلواتهم ما ترجَـمتُه هكذا: اللهم اضرب ببوقٍ عظيمَ لفِيفَنا[1]، واقبضنا جميعًا من أربعة أقطار الأرض إلىٰ قُدسك، سبحانك يا جامع شتات قوم إسرائيل.

ويقولون كل يوم ما ترجَـمته هكذا: أُردد حكامنا كالأوَّلين، ومُشيرينا كالابتداء، وابن أورشليم قرية قُدسك في أيامنا، وأعِزَّنا ببنيانها، سبحانك يا باني يورشليم.

---

(١) اللفيف هو الجمع من الناس. انظر «المعجم الوسيط».

فهذا قولهم في صلاتهم، مع علمهم بأن موسىٰ وهارون (عليهما السلام) لم يقولا شيئًا من ذلك، ولكنها فصول لفَّقوها بعد زوال دولتهم.

وكذلك صيامهم - كصوم إحراق بيت المقدس، وصوم حصبا، وصوم كَدَلِيا - التي جعلوها فرضًا، لم يصمها موسىٰ ولا يوشع بن نون، وكذلك صوم صَلب هامان، ليس شيء من ذلك في التوراة، وإنما وضعوها لأسباب اقتضت وضعها عندهم.

هذا مع أنه في التوراة ما ترجَمته: **لا تزيدوا علىٰ الأمر الذي أنا موصيكم به شيئًا ولا تَنقُصوا منه شيئًا.**

وقد تضمَّنت التوراة أوامر كثيرة جدًّا هم مجمعون علىٰ تعطيلها وإلغائها، فإما أن تكون منسوخة بنصوص أخرىٰ من التوراة، أو بنقل صحيح عن موسىٰ (عليه السلام)، أو باجتهاد علمائهم وأحبارهم، وعلىٰ التقادير الثلاثة فقد بطلت شبهتهم في إنكار النسخ.

ثم من العجب أن أكثر تلك الأوامر التي هم مُجمعون علىٰ عدم القول بها والعمل بها إنما يستنِدون فيها إلىٰ أقوال علمائهم وآرائهم، وقد اتفقوا علىٰ تعطيلِ الرجم للزاني، وهو نصُّ التوراة، وتعطيلِ أحكام كثيرة منصوصة في التوراة.

ومن تلاعب الشيطان بهم أنهم يزعمون أن الفقهاء إذا أحلُّوا لهم الشيء صار حلالًا، وإذا حرَّموه صار حرامًا، وإن كان نصُّ التوراة بخلافه، وهذا

تجويز منهم لنسخهم ما شاءوا من شريعة التوراة، فحجَّروا علىٰ الرب تعالىٰ وتقدَّس أن ينسخَ ما يريد من شريعته وجوَّزوا ذلك لأحبارهم وعلمائهم، كما تكبَّر إبليسُ أن يسجد لآدم، ورأىٰ أن ذلك يَغُضُّ منه[١]، ثم رضي أن يكون قوَّادًا[٢] لكل عاصٍ وفاسق.

وكما أنِفَ عُـبَّاد الأصنام أن يكون النبي المرسل إليهم بَشرًا، ثم رضوا أن يكون إلـٰهُهم ومعبودُهم حَجَرًا.

وكما نـزَّهت النصارىٰ بَتارِكَهم[٣] عن الولد والصاحبة، ولم يتحاشوا من نِسبة ذلك إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

وكما نـزَّهت الفرعونية من الجهمية الربَّ سبحانه أن يكون مستوِيًا علىٰ عرشه - لئلا يَـلزم الحصر - ثم جعلوه سبحانه في الآبار والحانات وأجواف الحيوانات.

فصلٌ، ومن تلاعب الشيطان بهم ما شدَّدوه علىٰ أنفسهم في باب الذبائح وغيرها مما ليس له أصلٌ عن موسىٰ (عليه السلام) ولا هو في التوراة، وإنما هو

---

(١) أي يُنقِصُ من قدره.

(٢) القوَّاد في الأصل هو الساعي بين الرجل والمرأة ليوقعهما في الفجور، واستعيرت الكلمة هنا فوُصِف إبليس بها، إذ هو يسعىٰ بين بني آدم وبين المعاصي عمومًا. انظر «المعجم الوسيط».

(٣) البتارك جمع بـترك ويسمىٰ البطريق والبطريك، هو رئيس رؤساء الأساقفة، ومُقَدَّم النصارىٰ. انظر «المعجم الوسيط».

من أوضاع الحخاميم[١] وآرائهم، وهم فقهاؤهم.

ولقد كان لهذه الأمة في قديم الزمان بالشام والعراق والمدائن مدارِس وفقهاء كثيرون، وذلك في زمن دولة البابِليِّـين والفرس، ودولة اليونان والروم، حتىٰ اجتمع فقهاؤهم في بعض تلك الدول علىٰ تأليف «الـمِشْنا» و «التلمود».

فأما «الـمِشْنا» فهو الكتاب الأصغر ومبلغ حجمِه نحو ثمان مئة ورقة، وأما «التلمود» فهو الكتاب الأكبر، ومبلغه نحو نصف حِـمْلِ بغلٍ لكثرته، ولم يكن الفقهاء الذين ألَّفوه في عصر واحد، وإنما ألفوه جيلًا بعد جيل، فلما نظر المتأخرون منهم إلىٰ هذا التأليف، وأنه كلما مر عليه الزمان زادوا فيه، وأنَّ في الزيادات المتأخرة ما يُناقض أوائلَ هذا التأليف؛ علِموا أنهم إن لم يَقطعوا ذلك ويَمنعوا من الزيادة فيه أدىٰ إلىٰ الخلل الذي لا يمكن سَدُّهُ، قطعوا[٢] الزيادة فيه ومنعوا منها، وحظَروا علىٰ الفقهاء الزيادة فيه وإضافة شيء آخر إليه، وحرَّموا من يضيفُ إليه شيئًا آخر، فوقَفَ[٣] علىٰ ذلك المقدار.

وكانت أئمتُهم قد حرَّموا عليهم في هٰذين الكتابين مؤاكلة الأجانب، وهم من كان علىٰ غير ملتهم، وحظَروا عليهم أكل اللحمان من ذبيحة من لم يكن

---

(١) الحخاميم جمع حاخام، وهو فقيه اليهود كما بيَّن الشيخ بعده.

(٢) تقدير الكلام: لذلك قطعوا الزيادة فيه.

(٣) أي وقَف الكتاب.

علىٰ دينهم، لأن علماءهم علِموا أن دينهم لا يبقىٰ في هذه الخلوة[١] مع كونهم تحت الذل والعبودية إلا أن يصُدوهم عن مخالطة من هو علىٰ غير ملتهم، فحرَّموا عليهم الأكلُ من ذبائحهم ومُناكحتهم، ولم يُمْكِنْهُم تقريرَ ذلك إلا بحجة يبتدعونها من أنفسهم ويكذبون بها علىٰ الله تعالىٰ، لأن التوراة إنما حَرَّمت عليهم مناكحة غيرهم من الأمم لئلا يُوافقوا الأزواجَ في عبادة الأصنام والشرك بالله، وحَرَّمَ عليهم في التوراة أكلَ ذبائح الأمم التي يذبحونها قربانًا إلىٰ الأصنام لأنه قد سُمِّيَ عليها اسمُ غيرِ الله تعالىٰ، فأما الذبائح التي لم تُذبح قربانًا للأصنام فلم تَنطق التوراة بتحريمها، وإنما نطقت بإباحة الأكل من أيدي غيرهم من الأمم، وموسىٰ (عليه السلام) إنما نهاهم عن مناكحة عُبَّاد الأصنام وأكلِ ما يذبحونها علىٰ اسمها، فما بالُ هؤلاء لا يأكلون من ذبائح المسلمين وهم لا يذبحون للأصنام ولا يذكرون اسمها عليها؟!

فلما نظر أئمتهم إلىٰ أن التوراة غيرُ ناطقةٍ بتحريمِ مآكل الأمم عليهم إلا عُبَّاد الأصنام، وأن التوراة قد صرحت بأن تحريمَ مؤاكلتِهم ومخالطتِهم خوفَ[٢] استدارجِ المخالطةِ إلىٰ المناكحة، وأن مناكحتَهم إنما مُنِعَ منها خوفَ

---

(١) الخلوة هي الحال التي يكون فيها صاحبها غير مختلط بالناس، والمقصود هنا أن اليهود كانوا يريدون الحفاظ علىٰ دينهم وعدم الاختلاط بالأمم الأخرىٰ لئلا يدخل في عقيدتهم ما ليس منها.

(٢) تقدير الكلام: لخوف.

استتباعها إلىٰ الانتقال إلىٰ أديانهم وعبادة أوثانهم، ووجدوا جميع هذا واضحًا في التوراة؛ اختلقوا كتابًا في علم الذِّباحة، ووضعوا فيه من التشديد والآصار والأغلال ما شغلوهم به عمَّا هم فيه من الذُّل والمشقة، وذلك أنهم أمروهم أن ينفخوا الرئة حتىٰ يملؤوها هواء ويتأملونها، هل يخرج الهواء من ثقبٍ منها أم لا، فإن خرج منها الهواء حرَّموها، وإن كان بعض أطراف الرئة لاصقًا ببعضٍ لم يأكلوه، وأمروا الذي يتفقَّد الذبيحة أن يُدخِل يده في بطن الذبيحة ويتأمل بأصابعه، فإن وجد القلبَ ملتصقًا إلىٰ الظهرِ أو أحد الجانبين - ولو كان الالتصاق بعرقٍ دقيقٍ كالشعرة - حرَّموه ولم يأكلوه، وسمَّوه «طريفًا»، يعنون بذلك أنه نجسٌ وأكله حرامٌ، وهذه التسمية هي أصلُ بلائهم، وذلك أن التوراة حرَّمت عليهم أكل «الطريفا»، و «الطريفا» هي الفريسة التي يفترسها الأسد أو الذئب أو غيرهما من السباع، وهو الذي عبر عنه القرآن بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾، والدليل علىٰ ذلك أنه قال في التوراة: (ولحمًا في الصحراء فريسةً لا تأكلوه، وللكلب ألقوه).

وأصلُ لفظ «طريفا» طوارف، وقد جاءت هذه اللفظة في التوراة في قصة يوسف (عليه السلام) لما جاء إخوته علىٰ قميصه بدم كذب، وزعموا أن الذئب افترسه، وقال في التوراة: (ولحمًا في الصحراء فريسةً لا تأكلوا)، والفريسة إنما توجد غالبًا في الصحراء.

وكان سبب نـزول هذا عليهم أنهم كانوا ذوِي أخبية[١] يسكنون البر، لأنهم مكثوا يترددون في البر والتِّـيه أربعين سنة، كانوا لا يجدون طعامًا إلا المنَّ والسلوىٰ، وهو طائر صغير يشبه السَّمان، وفيه من الخاصِّية أن أكل لحمه يُليِّـن القلب ويَذهب بالـحُزون والقساوة، فإنَّ هذا الطائر يموت إذا سمع صوت الرعد، كما أن الـخُطَّاف[٢] يقتله البرد، فألهمه الله سبحانه وتعالىٰ أن يَسكن جزائر البحر التي لا يكون بها مطر ولا رعد إلىٰ انقضاء أوانِ المطر والرعد، فيخرج من الجزائر وينتشر في الأرض، فجلب الله تعالىٰ إليهم هذا الطائر لينتفعوا به ويكون اغتذاؤهم به كالدواء، لِـغِلَظِ قلوبهم وقسوتها.

والمقصود أن مشايخهم تَعَدَّوا في تفسير «الطريفا» عن موضوعها وما أُريد بها، وكذلك فقهاؤهم اختلقوا من أنفسهم هَذَيانات وخُرافات تتعلق بالرئة والقلب، وقالوا: (ما كان من الذبائح سليمًا من تلك الشروط فهو دخنا)، ومعنىٰ هذه اللفظة أنه طاهر، وما كان خارجًا عن هذه الشروط فهو «طريفا»، وتفسيرها أنه حرام.

قالوا: ومعنىٰ نص التوراة (ولحمًا فريسةً في الصحراء لا تأكلوه، وللكلب ألقوه)؛ أي إنكم إذا ذبـحتم ذبيحة ولم توجد فيها هذه الشروط فلا تأكلوها، بل تبيعونها علىٰ من ليس من أهل ملتكم.

---

(١) أخبية جمع خِباء، وهو البيت المصنوع من وبر أو شعر أو صوف. انظر «المعجم الوسيط».

(٢) الـخُطَّاف نوع من الطيور. انظر «المعجم الوسيط».

وفسَّروا قولَه: (للكلب ألقوه) أي لمن ليس من أهل ملتكم فأطعِموه وبِيعوه، وهم أحق بهذا اللقب وأشبه بالكلاب.

ثم إن هذه الأمة الغضبية فرقتان؛ **إحداهما** عرفوا أن أولئك السلف الذين ألَّفوا «المِشْنا» و «التلمود» - وهم فقهاء اليهود - كذبوا علىٰ الله وعلىٰ موسىٰ النبي، وهم أصحاب حماقات وتنطُّع ودعاوىٰ كاذبة، يزعمون أنهم كانوا إذا اختلفوا في شيء من تلك المسائل يوحي الله تعالىٰ إليهم بصوت يسمعه جمهورُهم يقول: (الحقُّ في هذه المسألة مع فلان)، ويسمُّون هذا الصوت «بث قُول»، فلما نظرت اليهود القرَّاؤون - وهم أصحاب عانان وبنيامين - إلىٰ هذه المَحالات[1] الشنيعة وهذا الافتراء الفاحش والكذِب البارد؛ انفصلوا بأنفسهم عن الفقهاء وعن كل من يقول بمقالاتهم، وكذَّبوهم في كل ما افتروا علىٰ الله، وزعموا أنه لا يجوز قَبول شيء من أقوالهم، حيث ادعوا أن الله تعالىٰ كان يُوحي إليهم كما يُوحي إلىٰ الأنبياء.

وأما تلك التُّرهات التي ألفها الحخاميم - وهم فقهاؤهم - ونسبوها إلىٰ التوراة وإلىٰ موسىٰ؛ فإن القرَّائين اطَّرحوها كلها وألغوها، ولم يُحرِّموا شيئًا من الذبائح التي يتولون ذبيحتها البتة، ولم يُحرِّموا سوىٰ لحم الجَدْي بلبنِ أمه فقط، مراعاةً لنص التوراة: (لا يُنضجُ الجدي بلبن أمه)، وليسوا

(١) أي الأمور المستحيلة.

بأصحاب قياس بل أصحاب ظاهر فقط.

وأما **الفرقة الثانية** فهم الربانيون، وهم أصحاب القياس، وهم أكثر عددًا من القرَّائين، وفيهم الحخاميم المفترون علىٰ الله تعالىٰ الكذب، الذين زعموا أن الله تعالىٰ كان يخاطب جميعهم في كل مسألة بالصوت الذي يسمونه «بث قُول».

وهذه الطائفة أشدُّ اليهود عداوة لغيرهم من الأمم، لأن حخاميمهم أوهموهم أن المأكولات إنما تَحِلُّ للناس إن استعملوا فيها هذا العِلم الذي نسبوه إلىٰ موسىٰ (عليه السلام) وإلىٰ الله تعالىٰ، وأن سائر الأمم لا يعرفون هذا، وأنهم إنما شرفهم الله تعالىٰ بهذا وأمثال ذلك من التُّرهات، فصار أحدهم ينظرُ إلىٰ من ليس علىٰ مذهبه وملته كما ينظر إلىٰ الحيوان البهيم، وينظرُ إلىٰ مآكل الأمم وذبائحهم كما ينظر إلىٰ العَذِرة[1]، وهذا من كيد الشيطان لهم ولعبِهِ بهم، فإن الحخاميم قصدوا بذلك المبالغة في مخالفتهم الأمم والإزراء عليهم ونسبتِهم إلىٰ قلة العلم، وأنهم اختصوا دون الأمم بهذه الآصار والأغلال والتشديدات.

وكلما كان الحخاميم فيهم أكثرَ تكلفًا وأشدَّ إصرًا وأكثرَ تحريمًا؛ قالوا: هذا هو العالم الرباني!

ومما دعاهم إلىٰ التشديد والتضييق أنهم مُبدَّدون في شرق الأرض وغربها، فما من جماعة منهم في بلدة إلا وإذا قدم عليهم رجل من أهل دينهم من

(١) العَــذِرة هي ما يخرج من الإنسان من الغائط.

بلاد بعيدة يُظهر لهم الخشونةَ في دينهم والمبالغةَ في الاحتياط؛ فإن كان من المتفقِّهة فهو يَشرع في إنكار أشياء عليهم، ويوهمهم التنزه عمَّا هم عليهم[١]، وينسِبهم إلىٰ قلة الدين، وينسِب ما يُنكره عليهم إلىٰ مشايخه وأهل بلده، ويكون في أكثر تلك الأشياء كاذبًا، وقصده بذلك إما الرياسة عليهم وإما تحصيل بعض مآربه منهم، ولا سيما إن أراد المُقام عندهم، فتراه أول ما ينزل بهم لا يأكل من أطعمتهم ولا من ذبائحهم، ويتأمل سِكِّين ذبَّاحهم[٢]، ويُنكَر عليهم بعضُ أمره[٣] ويقول: (أنا لا آكلُ إلا من ذبيحة يدي)، فتراهم معه في عذاب، لا يزال ينكر عليهم المباح، ويوهمهم تحريمه بأشياء يخترعها حتىٰ لا يَشُكُّون في ذلك، فإن قدِم عليهم قادم آخر فخاف المقيمُ أن ينتقضَ عليه القادم[٤]؛ تلقَّاه وأكرمه وسعىٰ في موافقته وتصديقه، فيستحسنُ ما فعله الأول، ويقول لهم: (لقد عظَّم الله تعالىٰ ثواب فلان)، إذْ قوَّىٰ ناموس الدين في قلوب هذه الجماعة، وشدَّ سياج الشرع عندهم، وإذا لقيه يُظهر من مدحه وشكره والدعاءِ له ما يؤكد أمره.

---

(١) أي يوهمهم أنه ينبغي عليهم التنزه عما هم فيه من الحال الدينية، وكلمة (عليهم) مثبتة في نسختي عزير وعلي، ولعله سبق قلم من ابن القيم (رحمه الله)، فإن الأشبه بالسياق كلمة (عليه)، والله أعلم.

(٢) أي الجزار.

(٣) أي يكون أمره عندهم منكرًا وغامضًا.

(٤) أي يُفسِد عليه ما فعله.

وإن كان القادم الثاني منكِرًا لما جاء به الأول من التشديد والتضييق لم يقع عندهم بموقع، وينسِبونه إما إلىٰ الجهل وإما إلىٰ رقة الدين، لأنهم يعتقدون أن تضييق المعيشة وتحريم الحلال هو المبالغة في الدين.

وهم أبدًا يعتقدون الصواب والحق مع من يُشدِّد ويُضيِّق عليهم، هذا إن كان القادم من فقهائهم.

فأما إن كانوا من عُبـَّادهم وأحبارهم فهناك ترىٰ العَجب العُجاب من الناموس[١] الذي يعتمده والسُّنن التي يُحْدِثها ويُلحقها بالفرائض، فتراهم مُسلِّمين له منقادين، وهو يَحْتَلِبُ دَرَّهُمْ[٢]، ويَجْتَلِبُ دِرهَمَهم، حتىٰ إذا بلغه أن يهوديًّا جلس علىٰ قارعة الطريق يوم السبت أو اشترىٰ لبنًا من مسلم ثَلَبَهُ[٣] وسبَّه في مجمع اليهود، وأباح عرضه ونسبه إلىٰ قلة الدين.

فصلٌ، ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة الغضبية أنهم إذا رأوا الأمر أو النهي مما أُمروا به أو نُهوا عنه شاقًّا عليهم طلبوا التخلص منه بوجوه الحيل، فإن أَعيتهم الحيلة قالوا: هذا كان علينا لما كان لنا المُلك والرياسة.

---

(١) كلمة الناموس لها عدة معانٍ، وتعني في هذا السياق القانون والشريعة. انظر «المعجم الوسيط».

(٢) يحتلب درَّهم أي يحتلب البهيمة التي تدر حليبًا كثيرًا، كناقة ونحوها، يعني بذلك أنه يأخذ أنفس ما عندهم من الخير.

(٣) الثلب هو العيب والتنقص. انظر «المعجم الوسيط».

فمن ذلك أنهم أُمِروا إذا أقام أَخَوان في موضع واحد ومات أحدُهما ولم يُعْـقِب ولدًا؛ فلا تـخرج امرأة الميت إلىٰ رجل أجنبي، بل وَلَدَ حَـمِيِّها[١] ينكحها، وأولُ ولدٍ يُولِدُها يُنسبُ إلىٰ أخيه الدارج[٢]، فإن أبىٰ أن ينكِحها خرجت مشتكية منه إلىٰ مشيخةِ قومه تقول: (قد أبىٰ ابن حَـمِي أن يَستبقي اسمًا لأخيه في إسرائيل ولم يُرِد نكاحي)، فيُحضرُه الحاكم هناك ويُكلِّـفُه أن يقف ويقول: (ما أردتُ نكاحها)، فتتناولُ المرأة نَعلهُ فتخرجهُ من رجله وتمسِكُه[٣] بيدها وتبصق في وجهه وتنادي عليه: (كذا فليُصنَع بالرَّجل الذي لا يبني بيت أخيه)، ويُدعىٰ فيما بعد بـ «المخلوع النَّعل»، ويُـنـبَـزُ[٤] بنوه بـ «بني مخلوع النعل».

هذا كلُّه مفترض عليهم فيما يزعمون في التوراة، وفيه حكمة مُلجِئةٌ للرجل إلىٰ نكاح زوجة أخيه الدارج، فإنه إذا علم أن ذلك ينالُه إن لم ينكِحْها آثر نكاحها عليه، فإن كان مبغضًا لها، زَهِدًا في نكاحها، أو كانت هي زاهدة في نكاحه مبغضة له؛ استخرج لهما الفقهاء حيلة يَتخلص بها منها وتتخلص منه، فيُلزمونها الحضور عند الحاكم بمحضر من مشايخهم، ويُلقِّنونها أن تقول: (أَبَىٰ ابن حَـمي أن يقيم

---

(١) حميُّها أي حَـمـوُها وهو أخو زوجها.

(٢) أخيه الدارج أي الميت. انظر «لسان العرب».

(٣) أي الرُّجُل.

(٤) يُـنبِز أي يُلقب. انظر «لسان العرب».

لأخيه اسمًا في إسرائيل، لم يُرد نكاحي)، فيُلزمونها بالكذب عليه لأنه أراد نكاحها وكرِهته، فإذا لقَّنوها هذه الألفاظ قالتها، فيأمرونه بالكذب وأن يقوم ويقول: (ما أردتُ نكاحَها)، ولعلَّ ذلك سؤلُه وأمنيتُه، فيأمرونه بأن يكذب، ولم يكفِهم أن كذَبوا عليه وألزموه أن يكذِب حتىٰ سلَّطوها علىٰ الإخراق به[١] والبُصاق في وجهه، ويُسمون هذه المسألة «البياما والحالوس».

وقد تقدم من التنبيه علىٰ حيلهم في استباحة محارم الله تعالىٰ بعضُ ما فيه كفاية، فالقوم بيتُ الحيل والمكر والخبث.

وقد كانوا يتنوَّعون في عهد رسول الله (صلىٰ الله عليه وسلم) بأنواع الحيل والكيد والمكر عليه وعلىٰ أصحابه، ويرُدُّ الله سبحانه وتعالىٰ ذلك كله عليهم، فتحيَّلوا عليه وأرادوا قتله مرارًا، والله تعالىٰ يُنجِّيه من كيدهم، فتحيَّلوا عليه وصعدوا فوق سطحٍ وأخذوا رحًا[٢] أرادوا طرحها عليه وهو جالس في ظل حائط، فأتاه الوحيُ، فقام منصرفًا، وأخذ في حربهم وإجلائهم.

ومكروا به وظاهروا عليه أعدائه من المشركين، فظفَّره الله تعالىٰ بهم.

ومكروا به وأخذوا في جمع العدو له، فظفَّر الله تعالىٰ برئيسهم فقتله.

---

(١) الإخراق به أي الكذب عليه. انظر «المعجم الوسيط».

(٢) الرحا: أداة يُطحن بها. انظر «المعجم الوسيط».

ومكروا به وأرادوا قتله بالسُّم، فأعلمه الله تعالىٰ به ونجاه منه.

ومكروا به وسحروه، حتىٰ كان يُخيل إليه أنه يفعل الشيء ولم يفعله، فشفاه الله تعالىٰ وخلَّصه.

ومكروا به في قولهم: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾، يريدون بذلك تشكيك المسلمين في نبوته، فإنهم إذا أسلموا أوَّل النهار اطمأن المسلمون إليهم، وقالوا: (قد اتَّبعوا الحق وظهرت لهم أدلته)، فيكفرون آخر النهار ويجحدون نبوته ويقولون: (لَمْ نقصد إلا الحق واتِّباعه، فلما تبين لنا أنه ليس به؛ رجعنا عن الإيمان به)، وهذا من أعظم خُبثهم ومكرهم.

ولم يزالوا مُوضِعين[1] مجتهدين في المكر والخبث إلىٰ أن أخزاهم الله بيدِ رسوله وأتباعه (صلىٰ الله عليه وسلم) ورضي عنهم أعظم الخزي، ومزَّقهم كل ممزق، وشتَّت شملهم كل مشتَّت.

وكانوا يُعاهدونه (صلىٰ الله عليه وسلم) ويُصالحونه، فإذا خرج لحربِ عدوه نقضوا عهده.

ولما سَلب الله تعالىٰ هذه الأمةَ مُلكَها وعِزَّها، وأذلها وقطَّعهم في الأرض؛

---

(١) مُوضِعين أي مسرعين، من الإيضاع وهو السرعة، ومنه قول النبي (صلىٰ الله عليه وسلم) في حجته: عليكم بالسكينة، فإن البر ليس بالإيضاع.

انتقلوا من التدبير بالقُدرة والسلطان إلىٰ التدبير بالمكر والدهاء والخداع، وكذلك كل عاجز جبان، سلطانُه في مكره وخداعه وبَهْـتِه وكذِبه، ولذلك كان النساء بيت المكر والخداع والكذب والخيانة، كما قال الله تعالىٰ عن شاهِدِ يوسف (عليه السلام) أنه[١] قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة أنهم يُمثِّلون أنفسهم بعناقيد الكَـرْم[٢]، وسائرَ الأمم بالشوك المحيط بأعالي حيطان الكرْم، وهذا من غاية جهلهم وسَفَهِهم، فإن المعتنين بمصالح الكرْم إنما يَجعلون علىٰ أعالي حيطانه الشوكَ حفظًا له وحِياطةً وصيانةً، ولسنا نرىٰ لليهود من سائر الأمم إلا الضرر والذل والصَّغار، كما يفعل الناسُ بالشوك.

ومن تلاعبه بهم أنهم ينتظرون قائمًا من وَلَدِ داودَ النبي إذا حرَّك شفتيه بالدعاء مات جميع الأمم، وأن هذا المُنتظَر - بزعمهم - هو المسيح الذي وُعِدوا به، وهم في **الحقيقة إنما ينتظرون مسيح الضلالة الدجال**[٣]، فهم أكثرُ

---

(١) في نسخة عزير (أن)، والمثبت من نسخة علي.

(٢) الكرْم هو العنب.

(٣) جاء ذلك في الحديث الذي رواه مسلم (٢٩٤٤) عن أنس بن مالك (رضي الله عنه): يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفًا.

وأصبهان من مدن إيران، وانظر للتوسع كتاب الشيخ الألباني (رحمه الله) «قصة المسيح الدجال، ونزول عيسىٰ (عليه السلام) وقتلِه إياه».

أتباعِه، وإلا فمسيحُ الهدىٰ عيسىٰ ابن مريم (عليه السلام) يقتلُهم، ولا يُبقي منهم أحدًا.

والأمم الثلاثُ تنتظر منتَظَرًا يخرج في آخر الزمان، فإنهم وُعِدوا به في كل ملة، والمسلمون ينتظرون نـزولَ المسيحِ عيسىٰ ابن مريم من السماء لكسر الصليب وقتل الخنـزير وقتل أعدائِه من اليهود وعُبَّادِه من النصارىٰ، وينتظرون خروج المهدي من أهل بيت النبوة[١]، يملأُ الأرض عدلًا كما مُلئت جورًا وظلمًا.

فصلٌ، ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة الغضبية أنهم في العشر الأُوَلِ من الشهر الأَوَّلِ من كل سنة يقولون في صلاتهم: (كم تقول الأمم: أين إلٰـهُهم؟ انتبه، كم تنام يا رب؟ **استيقظ من رقدتك**)[٢].

وهؤلاء إنما أقدموا علىٰ هذه الكُفريات من شِدة ضجرهم من الذل والعبودية وانتظارِ فرج لا يزداد منهم إلا بُعدًا، فأوقعهم ذلك في الكفر والتزندق الذي لا يَستحسنُه إلا أمثالهم، وتجرَّؤوا علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ بهذه المناجاة القبيحة، كأنهم يَنخَونه[٣] بذلك لينتخي لهم ويحمي لنفسه، فكأنهم يُخبرونه

---

(١) ورد في خروج المهدي عدة أحاديث، نقل جملة منها الشيخ الألباني (رحمه الله) في «الصحيحة» (١٥٢٩، ٢٢٣٦، ٢٢٩٣، ٢٣٠٨).

(٢) انظر إلىٰ قلة أدبهم مع الله تعالىٰ وسوء توقيرهم له.

(٣) النخوة هي العظمة والكبرياء والحماسة، كما في «المعجم الوسيط»، وعليه فمعنىٰ ينخونه أي

سبحانه وتعالىٰ بأنه قد اختار الخمول لنفسه ولأحبابه وأبناء أنبيائه، فينتخَونه للنَّـباهة واشتهار الصِّيت!

فترىٰ أحدَهم إذا تلا هذه الكلماتِ في الصلاة يقشعرُّ جلدُه، ولا يَشكُّ في أن هذه المناجاة تقع عند الله تعالىٰ بموقع عظيم، وأنها تؤثرُ فيه وتحركه وتهزُّه وتُـنخِّـيه.

ومن ذلك[١] **أنهم ينسبون إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ الندم علىٰ ما يفعل**، فمن ذلك قولهم في التوراة التي بأيديهم: ونَدِمَ الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ خلق البشر الذين في الأرض وشقَّ عليه، وعاد في رأيه.

وذلك عندهم في قصة قوم نوح.

وزعموا أن الله سبحانه وتعالىٰ وتقدس لمَّا رأىٰ فساد قوم نوح، وأن شرَّهم وكفرهم قد عَظُم؛ نَدِم علىٰ خلق البشر.

وكثيرٌ منهم يقول: إنه[٢] بكىٰ علىٰ الطوفان حتىٰ رمِدَ[٣] وعادَته

=

يستثيرون فيه العظمة والكبرياء والحماسة.

(١) أي: ومن أمثلة جرأتهم علىٰ الله تعالىٰ.

(٢) أي الله - سبحانه وتعالىٰ عما يقولون علوًّا كبيرًا -.

(٣) الرمد: مرض يصيب العينين.

الملائكة، وأنه عضَّ علىٰ أنامله حتىٰ جرىٰ الدمُ منها.

وقالوا أيضًا: إن الله تعالىٰ ندِم علىٰ تمليكِه « شاؤول» علىٰ بني إسرائيل، وأنه قال ذلك لشَمويل.

وعندهم أيضًا أن نوحًا (عليه السلام) لما خرج من السفينة بدأ ببناء مذبحٍ لله تعالىٰ وقرَّب عليه قُربانَين، وأن الله تعالىٰ استنشق رائحة القُتار[١]، فقال الله تعالىٰ في ذاته: لن أُعاوِد لعنة الأرض بسبب الناس، لأن خاطرَ البشر مطبوع علىٰ الرداءة، ولن أُهلك جميع الحيوان كما صنعتُ.

وقد واجهوا رسول الله (صلىٰ الله عليه وسلم) وأصحابَه (رضي الله تعالىٰ عنهم) بأمثال هذه الكُفريات، فقال قائل منهم للنبي (صلىٰ الله عليه وسلم): (إن الله سبحانه وتعالىٰ خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح)، فشقَّ ذلك علىٰ النبي (صلىٰ الله عليه وسلم)، فأنزل الله تعالىٰ تكذيبًا لهم ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾.[٢]

وتأمل قوله تعالىٰ عَـقِيبَ[٣] ذلك: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، فإنَّ أعداء الرسول (صلىٰ الله عليه وسلم) نسبوه إلىٰ ما لا يليق به، وقالوا فيه ما هو مُنزَّه

---

(١) القُـتار دخان ذو رائحة خاصة ينبعث عن الطبخ أو الاحتراق. انظر «المعجم الوسيط».

(٢) اللغوب هو التعب والإعياء. انظر «النهاية».

(٣) عَـقِيب أي بعد.

عنه، فأمره الله (سبحانه وتعالىٰ) أن يصبر علىٰ قولهم، ويكون له أسوةٌ بربه (سبحانه وتعالىٰ) حيث قال أعداؤه فيه ما لا يليق به.

وكذلك قال «فِنحاص» لأبي بكر: (إن الله فقير ونحن أغنياء، ولهذا استقرضَنا[١] من أموالنا)، فأنزل الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾[٢].

وقالوا أيضًا: يد الله مغلولة كما حكىٰ الله ذلك سبحانه عنهم في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾.

ويقولون في العَشر الأُوَلِ من الشهر الأَوَّل من كل سنة: يا إلٰهَنا وإلٰهَ آبائنا، املُك علىٰ جميع أهل الأرض، ليقولَ كلُّ ذي نَسَمَة[٣]: الله إلٰه إسرائيل قد مَلَك، ومملكتُه في الكل مُتسلِّطة.

ويقولون في هذه الصلاة أيضًا: وسيكون لله تعالىٰ الـمُلك، وفي ذلك اليومِ

---

(١) أي: طلب منا أن نُقرِضه، قال ذلك لما أنزل الله تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، كما رواه ابن جرير في تفسير الآية المذكورة.

(٢) انظر تفسير الآية وسبب نزولها في تفسير ابن جرير وكذا تفسير ابن أبي حاتم، (سورة آل عمران: ١٨١).

(٣) النَّسمة هي الروح. انظر «النهاية».

يكون الله تعالىٰ واحدًا واسمه واحدًا.

ويعنون بذلك أنه لا يَظهر أن الـمُلك لله تعالىٰ إلا إذا صارت الدولة لليهود الذين هم صفوتُه وأُمته، فأما ما دامت الدولة لغير اليهود فإنه (سبحانه وتعالىٰ) خاملُ الذِّكر عند الأمم، مطعونٌ في ملكه، مشكوكٌ في قدرته.

فصلٌ، ومن تلاعب الشيطان بهم أنهم مُولعون بالقـــدح في الأنبياء وأذِيَّـتهم، وقد آذوا موسىٰ (عليه السلامَ) في حياته، ونسبوه إلىٰ ما برَّأه الله تعالىٰ منه، ونهىٰ الله سبحانه هذه الأمة عن الاقتداء بهم في ذلك حيث يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾.

وثبت في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (صلىٰ الله عليه وسلم) قال: كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراةً ينظر بعضهم إلىٰ بعض[(١)]، وكان موسىٰ يغتسل وحده، فقالوا: (والله ما يمنع موسىٰ أن يغتسل معنا إلا أنه آدَرُ[(٢)])، فذهب موسىٰ يغتسل فوضع ثوبه علىٰ حَجَرٍ، ففرَّ الحجرُ بثوبه، فجمحَ[(٣)] موسىٰ بأثرِهِ يقول: (ثوبي يا حجر، ثوبي يا حجر)، حتىٰ نَظَرَتْ بنو إسرائيل إلىٰ موسىٰ وقالوا: والله ما بموسىٰ من بأس.

---

(١) أي ينظر بعضهم إلىٰ عورة بعض.

(٢) آدر أي به انتفاخ في خصيته.

(٣) جمح أي أسرع إسراعًا لا يرُدُّه شيء. انظر «النهاية».

وأخذ ثوبه فطَفِقَ[١] بالحجر ضربًا، فقال أبو هريرة: والله إنه لنَدَبٌ[٢] بالحجر ستة أو سبعة ضربًا بالحجر.[٣]

وأنزل الله تعالىٰ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب عن جعفر عن سعيد: قالت بنو إسرائيل: إن موسىٰ آدر، وقالت طائفة: هو أبرص من شدة تَسَتُّرِهِ.[٤]

وقال ابنُ سيرين عن أبي هريرة عن النبي (صلىٰ الله عليه وسلم): إن موسىٰ كان رجلًا حيِيًّا سِتِّيرًا، لا يكاد يُرىٰ من جلده شيءٌ استحياء منه، فآذاه مَن آذاه من بني إسرائيل وقالوا: ما تَستَّر هذا التَّستُّر إلا من عيبٍ في جلدِه، إما برصٌ وإما أُدْرةٌ وإما آفةٌ، وإنَّ الله أراد أن يُبرِّئه مما قالوا، وذكر الحديث.[٥]

وقال سفيان بن حسين عن الحكم عن ابن جبير عن ابن عباس عن

---

(١) طَفِق أي أخذ في فعل ما. انظر «النهاية».

(٢) قال ابن الأثير (رحمه الله) في «النهاية»: الندَب أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد، فشُبه به أثر الضرب في الحجر.

(٣) رواه البخاري (٢٧٨) ومسلم (٣٣٩)، واللفظ للبخاري، وقد ضبطت النص منه.

(٤) انظر كلامه هذا في تفسير الآية المذكورة في تفسيره (رحمه الله).

(٥) انظر كلامه هذا في تفسير الآية المذكورة في تفسيره (رحمه الله).

علي بن أبي طالب في قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ قال: صعد موسىٰ وهارونُ الجبل، فمات هارونُ، فقالت بنو إسرائيل(١): (أنت قتلتَه، وكان أشدَّ حبًّا لنا منك وألين لنا منك)، وآذوه بذلك، فأمر الله تعالىٰ الملائكة فحملته حتىٰ مَـرُّوا به علىٰ بني إسرائيل، وتكلَّمت الملائكة بموته(٢) حتىٰ عَرف بنو إسرائيل أنه قد مات، فبرَّأه الله تعالىٰ من ذلك، فانطلقوا به فدفنوه، فلم يطَّلِعَ علىٰ قبـره أحدٌ من خـلق الله تعالىٰ إلا الرَّخَم(٣)، فجعله الله تعالىٰ أصمَّ أبكم.

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾.

وتأمل قوله: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾، فإنها جملة في موضع الحال، أي: (أتؤذونني وأنتم تعلمون أني رسول الله إليكم)، وذلك أبلغ في العناد.

وكذلك المسيح قال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾.

فهذا قليلٌ من كثيرٍ من أذاهُم لأنبيائهم.

---

(١) أي قالت لموسىٰ (عليه السلام).

(٢) أي بسبب موته وأنه لم يكن مقتولًا.

(٣) الرَّخَم نوع من الطير معروف، واحدته رخَمة، وهو موصوف بالغدر، وقيل: بالقذر. انظر «النهاية».

وأما أذاهم لهم بالقتل والنفي فأشهرُ من أن يُذكر.

ولقد بالغوا في أذىٰ النبي (صلىٰ الله عليه وسلم) بجُهدِهم بالقول والفعل، حتىٰ ردَّهم الله تعالىٰ خاسئين.

ومن قدحهم في الأنبياء ما نسبوه إلىٰ نص التوراة أنه لما أهلك الله أمة لوط لفسادها ونجَّىٰ لوطًا بابنتيه فقط؛ ظنَّ ابنتاه أن الأرض قد خلت ممن يستبقِين منه نَسْلًا(١)، فقالت الصغرىٰ للكبرىٰ: (إن أبانا شيخٌ، ولم يبق في الأرض إنسانٌ يأتينا كسبيل البشر(٢)، فهلُمِّي نسقي أبانا خمرًا ونُضاجعُه لنستبقي من أبينا نسلًا)، ففعلتا ذلك بزعمهم، فنسبوا إلىٰ النبي أنه سكِرَ حتىٰ لم يَعرف ابنتيه، ثم وطِـئَهما وأحبَلهما(٣) وهو لا يعرفهما، فولدت إحداهما ولدًا سمَّته «مواب»، يعني أنه من الأب، والثانية سمَّت ولدها «ابن عمي»، يعني أنه من قَبيلها(٤).

وقد أجاب بعضهم عن هذا بأنه كان قبل نزول التوراة، فلم يكن نكاحُ الأقارب حرامًا، والتوراة تُكذِّبُهم، فإن فيها أن إبراهيم الخليل خافَ في ذلك العصر أن يقتلَه المِصرِيون حسدًا له علىٰ زوجته سارة، فأخفىٰ نكاحها وقال:

---

(١) أي: يُـنجِبن منه نسلًا.

(٢) أي: يَـنكحنا كحال البشر.

(٣) أحبَلهما أي حملَا منه.

(٤) أي من جهتها في العائلة.

(هي أختي)، علمًا منه بأنه إذا قال ذلك لم يبقَ للظنون إليهما سبيل.

وهذا أظهر دليل علىٰ أن تحريم نكاحِ الأختِ كان ثابتًا في ذلك الزمان، فما ظنُّك بنكاح البنت الذي لم يُشرع ولا في زمن آدم (عليه السلام).

وعندهم أيضًا في التوراة التي بأيديهم قصةٌ أعجب من هذه، وهي أن يهوذا بن يعقوب النبي زوَّج ولدَه الأكبر من امرأةٍ يقال لها: «تامار»، فكان يأتيها مستدبرًا[١]، فغضِب الله تعالىٰ من فعله، فأماته، فزوَّج يهوذا ولده الآخر بها، فكان إذا دخل بها أنزَل علىٰ الأرضِ[٢] عِلمًا منه بأنه إن أوْلَدها كان أوَّلُ الأولادِ مدعوًّا باسم أخيه ومنسوبًا إلىٰ أخيه، فكرِه الله تعالىٰ ذلك من فعله، فأماته أيضًا، فأمرها يهوذا باللِّحاق ببيت أبيها إلىٰ أن يكبُرَ «شيلا» ولدُه ويتمَّ عقلُه، حذرًا من أن يصيبَه ما أصاب أخوَيه، فأقامت في بيت أبيها، ثم ماتت من بعدُ زوجةُ يهوذا، وصعِد إلىٰ منزل ليحرس غنمه، فلما أُخبرت المرأة «تامار» بإصعاد حَمْوِها إلىٰ المنزل لبِست زِيَّ الزَّواني وجلست في مُستشرَفٍ[٣] علىٰ طريقِه لعلمها بِشَبَقِهِ[٤]، فلما مر بها خالَها[٥] زانيةً فراوَدها فطالبته بالأُجرة، فوعدها بِجَدي ورهَنَ عندها عصاهُ

(١) أي يأتيها في دُبُرِها.

(٢) أي أنزل مَنِيَّهُ في الأرض وليس في فرجها.

(٣) مستشرف أي مكان مشرِفٍ ظاهر.

(٤) الشَّبق هو شدة الشهوة. انظر «المعجم الوسيط».

(٥) خالَها أي ظنها.

وخاتمهُ ودخل بها، فعلِقَت منه[١]، فلما أُخبِر يهوذا أن كَنَّتَهُ[٢] علِقت من الزنا أفتىٰ بإحراقها، فبعثَت إليه بخاتمهِ وعصاه، فقالت: مِن ربِّ[٣] هٰذين أنا حامل.

فقال: صدقتِ، ومتىٰ ذلك؟

واعتذر بأنه لم يعرفها، ولم يستحِل معاودتها، ولا تسليمها إلىٰ ولده، وعلِقت من هذا الزنا بِعارِض[٤].

قالوا: ومِن ولَدِها داودُ النبيُّ.[٥]

وفي ذلك من نسبتهم الزنا والكفر إلىٰ أهل بيت النبوة ما يُقاربُ ما نسبوه إلىٰ لوط (عليه السلام).

وهذا كلُّه عندهم وفي نصِّ كتابهم، وهم يجعلون هذا نسَبًا لداود وسليمان (عليهما السلام) ولمسيحِهم المنتظر.

ومن العجب أنهم يجعلون المسلمين أولاد زنا، ويسمونهم «مَمازير»،

---

(١) أي حملت منه.

(٢) الكَنَّة: امرأة الابن وامرأة الأخ. انظر «المعجم الوسيط».

(٣) رَبُّ هٰذين، أي مالكهما.

(٤) أي هكذا عَرَضًا، بسبب تلك الزَّنْية.

(٥) هذه فِرية أخرىٰ علىٰ الأنبياء.

واحدها «مَـمزير»، وهو اسمٌ لولد الزنا، لأنَّ شرْعهم أن الزوج إذا راجع زوجته بعد أن نكحت زوجًا غيره فأولادهما أولاد زنا.

وزعموا أن ما جاءت به شريعة الإسلام من ذلك هو من موضوعات عبد الله بن سلام، قصد به أن يجعل أولاد المسلمين مَمازير بزعمهم.

قالوا: وكان محمد (صلىٰ الله عليه وسلم) قد رأىٰ أحلامًا تدل علىٰ أنه صاحب دولة[1]، فسافر إلىٰ الشام في تجارة لخديجة، واجتمع بأحبار اليهود وقصَّ عليهم أحلامه، فعلِموا أنه صاحب دولة، فأَصحَبوه عبدَ الله بن سلام، فقرأ عليه عُلوم التوراة وفِقهَها مدةً، ونسبوا الفصاحة والإعجاز الذي في القرآن إلىٰ عبد الله بن سلام، وأن من جملة ما قرَّره عبد الله بن سلام أن الزوجة لا تحلُّ للمُطلِّقِ ثلاثًا إلا بعد أن ينكحها رجل آخر، ليجعل أولادَ المسلمين أولادَ زنا.

ولا ريب أن مثل هذا البَهتِ يروج علىٰ كثير من حَميرهم.

وقد خلق الله تعالىٰ لكل باطلٍ وبَهتٍ حَمَلةً، كما للحق حملة، وليس وراء هذا البَهت بَهتٌ.

وليس بمستنكَرٍ لأمةٍ قدَحت في معبودها وإلٰهها ونَسَبته إلىٰ ما لا يليق

---

(١) هذه فِرية أخرىٰ علىٰ الأنبياء.

بعظمته وجلاله، ونَسَبت أنبياءَه إلىٰ ما لا يليق بهم، ورمتهم بالعظائم؛ أن ينسُبوا محمدًا (صلىٰ الله عليه وسلم) إلىٰ ذلك، وعداوتُه لهم وملاحِمُه فيهم وإجلاؤه لهم من ديارهم وأموالهم وسبيُ ذراريهِم ونسائِهم معلومٌ غير مجهول.

وقد نَسبت هذه الأمةُ الغضبية عيسىٰ ابن مريم إلىٰ أنه ساحر وَلَدُ غَـيَّـةٍ[١]، ونسبت أمه إلىٰ الفجور.

ونسبت لوطًا إلىٰ أنه وطِئ ابنتيه وأوْلَدَهما وهو سكران من الخمر.

ونسبوا سليمان (عليه السلام) إلىٰ أنه كان ملِكًا ساحرًا، وكان أبوه عندهم ملِكًا مسيحًا.

ونسبوا يوسف الصديق (عليه السلام) إلىٰ أنه حَلَّ تِكَّةَ[٢] سراويله وتِكَّةَ سراويلِ سيدته، وأنه قعد منها مقعد الرجل من المرأة، وأن الحائط انشقَّ له فرأىٰ أباه يعقوب (عليه السلام) عاضًّا علىٰ أنامله، فلم يَقمْ حتىٰ نزل عليه جبريل (عليه السلام) فقال: يا يوسف، تكونُ من الزُّناة وأنت معدودٌ عند الله تعالىٰ من الأنبياء؟

فقام حينئذ.

---

(١) أي ولدُ زَنية، حاشا نبي الله وأمه. انظر «المعجم الوسيط».

(٢) الـتِّـكة هي رباط السراويل. انظر «المعجم الوسيط».

ومعلوم أن تَرْكَ الفاحشة عن هذا لا مدح فيه، فإن أفسق الناس لو رأىٰ ذلك لولَّىٰ هاربًا وترك الفاحشة.

ومنهم من يزعمُ أن المسيح كان من العلماء، وأنه كان يُداوي المرضىٰ بالأدوية، ويوهمُهم أن الانتفاع إنما حصل لهم بدعائه، وأنه داوىٰ جماعةً من المرضىٰ في يوم السبت، فأنكرت عليه اليهود ذلك، فقال لهم: أخبِروني عن الشاة من الغنم إن وقعت في بئرٍ، أمَا تنزِلون إليها وتُحِلُّون السبت لتخليصها؟

قالوا: بلىٰ.

قال: فلِمَ أحللتم السبت لتخليص الغنم ولا تُحِلُّونه لتخليص الإنسان الذي هو أكبر حرمة من الغنم؟

فأُفحِموا.

ويحكون أيضًا عنه أنه كان مع قوم من تلاميذه في جبل ولم يحضُرهم الطعام، فأذِن لهم في تناول الحشيش يوم السبت، فأنكرت عليه اليهود قطع الحشيش في يوم السبت، فقال لهم: أرأيتم لو أنَّ أحدكم كان وحيدًا مع قوم علىٰ غير ملته، وأمرهم بقطع النبات وإلقائه لدوابهم، لا يقصِدون بذلك إبطال السبت، ألستم تُجيزون له قطع النبات؟

قالوا: بلىٰ.

قال: فإن هؤلاء القوم أمرتُهم بقطع النبات ليأكلوه ولِيغتذوا به، لا لِقطع السبت.

ومن العجب أن عندهم في التوراة التي بأيديهم: لا يزولُ المُلكُ من آل يهوذا، والرَّاسِمُ[١] من بين ظهرانيهم؛ إلىٰ أن يأتي المسيح.

وهم لا يقدرون أن يجحدوا ذلك.

فيقال لهم: إنكم كنتم أصحابَ دولة حتىٰ ظهر المسيح، ثم انقضىٰ ملكُكُم ولم يبق لكم اليوم مُلك، وهذا برهان علىٰ أن المسيح قد أُرسل، ومن حين بُعِث المسيح وكفروا به وطلبوا قتله استولت ملوك الروم علىٰ اليهود وبيت المقدس وانقضت دولتهم وتفرَّق شملهم.

فيقال لهم: ما تقولون في عيسىٰ ابن مريم؟

فيقولون: وَلَدُ يوسفَ النجار، لِغَيَّةٍ لا لِرِشدَةٍ[٢]، وكان قد عَرف اسم الله الأعظم، يُسَخِّرُ به كثيرًا من الأشياء.

---

(١) الراسم هو الماء الجاري كما في «المعجم الوسيط»، ولعله ماء كان يجري في ديارهم من نبع أو نهر ونحوه.

(٢) غَيَّةٌ أي زنية، والرِّشدة أي نكاح صحيح، انظر «المعجم الوسيط». واليهود يعنون بهذا أن عيسىٰ عليه السلام ولدُ يوسف النجار، وأن أمه مريم حملت به من سِفاح لا من نكاح، حاشا نبي الله عيسىٰ من ذلك.

وعند هذه الأمةِ الغضَبية أيضًا أن الله تعالىٰ كان قد أطْلع موسىٰ (عليه السلام) علىٰ الاسم المركب من اثنين وأربعين حرفًا، وبه شقَّ البحر وعمِل المعجزات!

فيقال لهم: فإذا كان موسىٰ قد عمل المعجزات باسم الله سبحانه، فلِم صدَّقْتم نبوته وأقررتم بها، وجحدتم نبوة عيسىٰ وقد عمل المعجزات بالاسم الأعظم؟

فأجاب بعضهم عن هذا الإلزام بأن الله سبحانه هو الذي علَّم موسىٰ ذلك الاسم، فعلَّمه بالوحي، وعيسىٰ إنما تعلَّم من حيطانٍ ببيت المقدس.

وهذا هو اللائق ببَهتِهم وكذِبهم علىٰ الله تعالىٰ وأنبيائه، وهو يسُدُّ عليهم العلم بنبوة موسىٰ، لأن كِلَا الرسولين اشتركا في المعجزات والآيات الظاهرة التي لا يقدِر أحد أن يأتي بمثلها، فإن كان أحدهما قد عمِلها بحيلةٍ أو بعلمٍ فالآخرُ يمكن ذلك في حقه، وقد أخبرا جميعًا أن الله (سبحانه وتعالىٰ) هو الذي أجرىٰ ذلك علىٰ أيديهما وأنه ليس من صنعهما، فتكذيبُ أحدِهما وتصديق الآخرِ تفريقٌ بين المتماثلين.

وأيضًا، فإنه لا دليل لهم علىٰ أن موسىٰ تلقَّىٰ تلك المعجزات عن الله تعالىٰ إلا وهو يدل علىٰ أن عيسىٰ (عليه السلام) تلقَّاها أيضًا عن الله تعالىٰ، فإنْ أمكن القدحُ في معجزات عيسىٰ أمكن القدحُ في معجزات موسىٰ (عليه السلام)، وإن كان ذلك باطلًا فهذا أيضًا باطل.

وإذا كان هذا شأن معجزات هٰذين الرسولين معَ بُعدِ العهدِ[١] وتَشَتُّتِ شملِ أُمتيهما في الأرض، وانقطاع معجزاتهما؛ فما الظَّن بنبوةِ مَن معجزاتُه وآياتُه تزيد علىٰ الألف، والعهدُ بها قريبٌ، وناقِلوها أصدقُ الخلق وأبرُّهم، ونَقْلُها ثابت بالتواتر قرنًا بعد قرن، وأعظمها معجزةً كتابٌ باقٍ غضٌّ طريٌّ، لم يتغير ولم يتبدل منه شيء، بل كأنه منزَّلٌ الآن، وهو القرآن العظيم، وما أخبر به يقع كلَّ وقتٍ علىٰ الوجه الذي أَخبر به حتىٰ كأنه كان يشاهدُه عَيانًا.

فصلٌ، ولا يمكن البتة أن يؤمنَ يهودي بنبوة موسىٰ (عليه السلام) إن لم يؤمن بنبوة محمد (صلىٰ الله عليه وسلم)، ولا يمكن نصرانيًّا أن يقر بنبوة المسيح إلا بعد إقراره بنبوة محمد (صلىٰ الله عليه وسلم) .

وبيان ذلك أن يُقال لهاتين الأمتين: أنتم لم تشاهدوا هٰذين الرسولين، ولا شاهدتم آياتهما وبراهين نبوتهما، فكيف يَسع العاقل أن يكذب نبيًّا ذا دعوة شائعة وكلمة قائمة وآيات باهرة، ويُصدِّق مَن ليس مثله ولا قريبًا منه في ذلك لأنه لم ير أحد النبيَّيْن ولا شاهد معجزاته، فإذا كذَّب بنبوة أحدهما لزِمه التكذيب بنبوتهما، وإن صدَّق بأحدهما لزِمه التصديق بنبوتهما، فمن كفر بنبي واحد فقد كفر بالأنبياء كلهم ولم ينفعه إيمانه به، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ

---

(١) بُعدُ العهدِ أي بُعد الزمان.

بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾، وقال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾، فنقول للمغضوب عليه: هل رأيت موسىٰ وعاينتَ معجزاته؟

فبالضرورة يقول: لا.

فنقول له: بأي شيءٍ عرفت نُبوته وصِدقه؟

فله جوابان: **أحدهما**، أن يقول: أبي عرَّفني ذلك وأخبرني به.

والثاني أن يقول: التواتر وشهادات الأمم حقَّق ذلك عندي كما حقَّقت شهادتهم وُجود البِلاد النائية والبحار والأنهار المعروفة وإن لم أشاهدها.

فإن اختار الجواب الأول وقال: (شهادة أبي وإخبارِه إياي بنبوة موسىٰ هي سبب تصديقي بنبوته)، فيقال له: ولِم كان أبوك عندك صادقًا في ذلك معصومًا عن الكذب وأنت ترىٰ الكفار يُعلِّمهم آباؤهم ما هو كفرٌ عندك؟ فإذا كنت ترىٰ الأديان الباطلة والمذاهب الفاسدة قد أخذها أربابُها عن آبائهم كأخذك مذهبَك عن أبيك، وأنت تعلم أن الذين[1] هم عليه ضلال؛

(١) هكذا في المطبوع وفي نسخة (علي)، ولعل الصواب: الذي.

فيلزمك أن تبحث عما أخذْتَه عن أبيك خوفًا أن تكون هذه حالَه.

فإن قال: (إنَّ الذي أخذتُه عن أبي أصحُّ من الذي أخذه الناس عن آبائهم)؛ كفاهُ معارضةُ غيره له بمثل قوله.(١)

فإن قال: (أبي أصدق من آبائهم وأعرف وأفضل)؛ عارضه سائر الناس في آبائهم بنظير ذلك.

فإن قال: (أنا أعرِف حال أبي ولا أعرف حال غيره)؛ قيل له: فما يؤمِّنك أن يكون غير أبيك أصدق من أبيك وأفضل وأعرف؟

وبكل حال فإن كان تقليد أبيه حـــجة صحيحة كان تقليد غيره لأبيه كذلك، وإن كان ذلك باطلًا كان تقليده لأبيه باطلًا.

فإن رجع عن هذا الجواب واختار الجواب الثاني وقال: (إنما عَلِمتُ نبوة موسىٰ بالتواتر قرنًا بعد قرن، فإنهم أخبروا بظهوره وبمعجزاته وآياته وبراهين نبوته التي تَضطر إلىٰ تصديقه)؛ فيقال له: (لا ينفعك هذا الجواب، لأنك قد أبطلت ما شهِد به التواتر من نبوة عيسىٰ ومحمد (صلىٰ الله عليه وسلم)).

فإن قلت: تواتَرَ ظهور موسىٰ ومعجزاته ولم يتواتر ذلك في المسيح

---

(١) أي أن ما يعارِض به غيرُه كلامَه يكفي في بطلان قوله، فهو يصف ما أخذه عن أبيه بالصدق، وهم كذلك يصفون ما أخذوه عن آبائهم بالصدق.

ومحمد؛ قيل: هذا هو اللائق ببُهت الأمة الغضبية، فإن الأمم جميعهم قد عرفوا أنهم قومٌ بُهت، وإلا فمِن المعلوم أن الناقِلِين لمعجزات المسيح ومحمد (صلوات الله وسلامه عليهم) أضعافُ أضعافكم بكثير، والمعجزات التي شاهدها أوائلهم لا تنقُص عن المعجزات التي أتىٰ بها موسىٰ (عليه السلام)، وقد نقلها عنهم أهل التواتر جيلًا بعد جيل وقرنًا بعد قرن، وأنت لا تَقبل خبر التواتر في ذلك وترُدُّه، فيلزمُك أن لا تقبله في أمر موسىٰ (عليه السلام).

ومن المعلوم بالضرورة أن من أثبت شيئًا ونفىٰ نظيره فقد تناقض، وإذا اشتهر النبي في عصر وصحَّت نبوتُه في ذلك العصر بالآيات التي ظهرت عليه لأهل عصره، ووصل خبرُه إلىٰ أهل عصرٍ آخر؛ وجب عليهم تصديقُه والإيمان به، وموسىٰ والمسيح ومحمد (صلوات الله وسلامه عليهم) في هذا سواء.

ولعل تواتُر الشهادات بنبوة موسىٰ أضعف من تواتر الشهادات بنبوة عيسىٰ ومحمد، لأن الأمة الغضبية قد مزَّقها الله تعالىٰ كل ممزق، وقطَّعها في الأرض، وسلَبها مُلكها وعِزَّها، فلا عيش لها إلا تحت قهر سواها من الأمم لها، بخلاف أمة عيسىٰ (عليه السلام)، فإنها قد انتشرت في الأرض، وفيهم الملوك، ولهم الممالِك، وأما الحنفاء فمَمالكهم قد طبَّقت مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، وملؤوا الدنيا سهلًا وجبلًا، فكيف يكون نقلُهم لما نقلوه كذبًا، ونقلُ الأمة الغضبية الخاملة القليلة الزائلة صِدقًا؟!

فثبت أنه لا يمكن يهوديًّا علىٰ وجه الأرض أن يُصدِّق بنبوة موسىٰ (عليه السلام) إلا بتصديقه وإقراره بنبوة محمد (صلىٰ الله عليه وسلم)، ولا يمكن نصرانيًّا البتة الإيمان بالمسيح (عليه السلام) إلا بعد الإيمان بمحمد (صلىٰ الله عليه وسلم) .

ولا ينفع هاتين الأمتين شهادة المسلمين بنبوة موسىٰ والمسيح لأنهم إنما آمنوا بهما علىٰ يد محمد (صلىٰ الله عليه وسلم)، وكان إيمانهم بهما من الإيمان بمحمد وبما جاء به، فلولاه ما عرفنا نبوتهما ولا آمنا بهما ولا بنبيهما، فإن أمة الغضب والضلال ليس بأيديهم عن أنبيائهم ما يوجب الإيمان بهم، فلولا القرآن ومحمد (صلىٰ الله عليه وسلم) ما عرفنا شيئًا من آيات الأنبياء المتقدمين، فمحمد (صلىٰ الله عليه وسلم) وكتابه هو الذي قرَّر نبوة موسىٰ ونبوة المسيح عليهما الصلاة والسلام، لا اليهود والنصارىٰ، بل كان نفسُ ظهوره ومجيئه تصديقًا لنبوتهما، فإنهما أخبرا به وبشَّرا بظهوره قبل ظهوره، **فلما بُعِث كان بَعثُـه تصديقًا لهما**، وهذا أحد المَعنَيين في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجۡنُونِۭ ٣٦ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٧﴾، أي مجيئُه تصديقٌ لهم من جهتين: من جهة إخبارهم بمجيئه ومبعثه، ومن جهة إخباره بمثل ما أخبروا به، ومطابقة ما جاءوا به لما جاءوا به، فإن الرسول الأوَّل إذا أتىٰ بأمرٍ لا يُعلمُ إلا بالوحي، ثم جاء نبي آخر لم يقارِبه في الزمان ولا في المكان، ولا تلقَّىٰ عنه بمثل

ما جاء به سواء؛ دل ذلك علىٰ صدق الرسولَين الأول والآخِر، وكان ذلك بمنزلة رجلين أخبر أحدهما بخبرٍ عن عَيان، ثم جاء آخر من غير بلده وناحيته بحيث نعلم أنه لم يجتمع به ولا تلقىٰ عنه ولا عمَّن تلقىٰ عنه - فأخبر بمثل ما أخبر به الأول سواءً، فإنه يُضطر السامع إلىٰ تصديق الأول والثاني.

والمعنىٰ الثاني أنه لم يأت مُكذِّبًا لمن قبله من الأنبياء مُزرِيًا عليهم، كما يفعل الملوك المُتغلبة علىٰ الناس بمن تقدمهم من الملوك، بل جاء مصدِّقًا لهم، شاهدًا بنبوتهم، ولو كان كاذبًا مُتقوِّلًا مُنشِئًا مِن عنده سياسةً؛ لم يُصدِّق مَن قَبله، بل كان يُزري بهم ويطعن عليهم كما يفعل أعداء الأنبياء.

فصلٌ، وقد اختلف أقوال الناس في التوراة التي بأيديهم، هل هي مُبدَّلة، أم التبديل والتحريف وقع في التأويل دون التنزيل، علىٰ ثلاثة أقوال؛ طرفين ووسط:

فأفرطت طائفة وزعمت أنها كلَّها أو أكثرها مبدَّلة مغيَّرة، ليست التوراة التي أنزلها الله تعالىٰ علىٰ موسىٰ (عليه السلام)، وتعرَّض هؤلاء لتناقضها وتكذيب بعضها لبعض.

وغلا بعضهم، فجوَّز الاستجمار بها من البول.

وقابلهم **طائفة أخرىٰ** من أئمة الحديث والفقه والكلام فقالوا: بل التبديل وقع في التأويل لا في التنزيل، وهذا مذهب أبي عبد الله، محمد بن إسماعيل

البخاري، قال في «صحيحه»: يُحرِّفون: يُـزيلون، وليس أحد يُزيل لفظ كتاب من كتب الله (عز وجل)، ولكنهم يُحرِّفونه، يتأولونه علىٰ غير تأويله.(١)

وهذا اختيار الرازي في «تفسيره».

وسمعت شيخَنا(٢) يقول: وقع النزاع في هذه المسألة بين بعض الفضلاء، فاختار هذا المذهب ووهَّن غيره، فأُنكِر عليه، فأَحضر لهم خمسة عشر نقلًا به.(٣)

ومن حجة هؤلاء أن التوراة قد طبَّقت مشارق الأرض ومغاربها، وانتشرت جنوبًا وشمالًا، ولا يَعلم عدد نُسَخها إلا الله تعالىٰ، ومن الممتنع أن يَقع التواطؤ علىٰ التبديل والتغيير في جميع تلك النسخ بحيث لا يبقىٰ في الأرض نسخة إلا مبدلة مُغيَّرة، والتغيير علىٰ مِنهاج واحد، وهذا مما يُحيله العقل ويشهد ببطلانه.

قالوا: وقد قال الله تعالىٰ لنبيه (صلىٰ الله عليه وسلم) محتجًّا علىٰ اليهود بها: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

قالوا: وقد اتفقوا علىٰ ترك فريضة الرجم ولم يمكنهم تغييرها من التوراة، ولهذا لـمَّا قرؤوها علىٰ النبي (صلىٰ الله عليه وسلم) وضع القارئ يده علىٰ آية

---

(١) قاله البخاري (رحمه الله) في «صحيحه»، كتاب التوحيد، باب: ٥٥، وقد ضبطت النص منه.

(٢) يعني بشيخه: ابن تيمية (رحمه الله).

(٣) أي أَحضر لهم خمسة عشر نقلًا يثبت كلامه.

الرجم فقال له عبد الله بن سلام: (ارفع يدك عن آية الرجم)، فرفعها، فإذا هي تلوحُ تحتها.[١]

فلو كانوا قد بدَّلوا ألفاظ التوراة لكان هذا من أهم ما يبدلونه.

قالوا: وكذلك صفات النبي (صلىٰ الله عليه وسلم) ومخرجِهِ هو في التوراةِ بيِّنٌ جدًّا، ولم يمكنهم إزالته وتغييره، وإنما ذمَّهم الله تعالىٰ بكتمانه، وكانوا إذا احتُجَّ عليهم بما في التوراة من نعته وصفته يقولون: ليس هو، ونحن ننتظره.

قالوا: وقد روىٰ أبو داود في «سننه» عن ابن عمر قال: أتىٰ نفرٌ من اليهود فدعوا رسول الله (صلىٰ الله عليه وسلم) إلىٰ القُفِّ[٢]، فأتاهم في بيت المِدْراس[٣] فقالوا: يا أبا القاسم إنَّ رجلًا منَّا زنىٰ بامرأة فاحكم بينهم.

فوضعوا لرسول الله وسادة فجلس عليها ثم قال: (ائتوني بالتوراة)، فأُتـي

---

(١) قصة الرجم رواها البخاري (٣٦٣٥) ومسلم (١٦٩٩)، وهي أن رجلًا من اليهود زنىٰ بامرأة منهم، فذكروا ذلك لرسول الله (صلىٰ الله عليه وسلم)، فسألهم: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويُجلدون. فقال عبد الله بن سلام وكان من أحبارهم: كذبتم، إن فيها – أي التوراة – الرجم. فأتوا بالتوراة فنشروها فجعل أحدهم يده علىٰ آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفعها فإذا فيها آية الرجم، فقال اليهود: صدق يا محمد، فيها آية الرجم. فأمر بهما رسول الله (صلىٰ الله عليه وسلم) فرُجِما.

(٢) القَفُّ وادٍ من أودية المدينة. انظر «النهاية».

(٣) المِدراس هو البيت الذي يدرس فيه اليهود. انظر «النهاية».

بـها، فنـزع الوسادة من تحته ووضع التوراة عليها، ثم قال: (آمنتُ بِكِ وبمن أنـزلكِ)، ثم قال: (ائتوني بأعلَمِكم)، فأُتي بفتىٰ شاب، ثم ذكر قصة الرجم.(١)

قالوا: فلو كانت مبدَّلة مغيرة لم يضعها علىٰ الوسادة، ولم يقل: آمنتُ بكِ.

قالوا: وقد قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾، والتوراة من كلماته.

قالوا: والآثار التي في كتمان اليهود صِفةَ رسول الله (صلىٰ الله عليه وسلم) في التوراة، ومَنعِهم أولادَهم وعوامَّهم من الاطلاع عليها مشهورةٌ، ومنِ اطَّلع عليها منهم قالوا له: ليس به(٢).

فهذا بعض ما احتجت به هذه الفرقة.

وتوسطت **طائفة ثالثة** وقالوا: قد زِيدَ فيها وغُيِّـرَ ألفاظٌ يسيرة، ولكن أكثرَها باقٍ علىٰ ما أُنـزِل عليه، والتبديل في يسير منها جدًّا، وممن اختار هذا القول شيخُنا(٣) في كتابه «الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح»، قال: وهذا كما في التوراة عندهم أن الله (سبحانه وتعالىٰ) قال لإبراهيم (عليه السلام):

---

(١) رواه أبو داود (٤٤٤٩)، وحسنه الألباني في «الإرواء» (٥/ ٩٤).

(٢) أي ليست الأوصاف به.

(٣) يعني بشيخه: ابن تيمية (رحمه الله) كما تقدم.

اذبح ولدك، بِكْرَكَ ووحيدَك إسحاق.

فـ «إسحاق» زيادة منهم في لفظ التوراة.

قلت: وهي باطلة قَطعًا من وجوه عشرة:

أحدها: أن بِكْـرَهُ ووحيده هو إسماعيل باتفاق الـمِلل الثلاث، فالجمع بين كونِه مأمورًا بذبحِ بِكْـرِه وتعيينه بإسحاق جمعٌ بين النقيضين.

الثاني: أن الله سبحانه وتعالىٰ أمر إبراهيم أن ينقُلَ هاجَرَ وابنها إسماعيل عن سارة ويُسكنهما في بَـرِيَّةِ مكة لئلا تَـغِيرُ سارة(١)، فأمر بإبعاد السُّـرِّيَّـة(٢) وولدها عنها حفظًا لقلبها ودفعًا لأذىٰ الغَيرة عنها، فكيف يأمر الله سبحانه وتعالىٰ بعد هذا بذبح ابن سارة وإبقاء ابن السُّـرِّيَّـة، فهذا مما لا تقتضيه الحكمة.

الثالث: أن قصة الذبح كانت بمكة قطعًا، ولهذا جعل الله تعالىٰ ذبح الهدايا والقرابين بمكة تذكيرًا للأمة بما كان من قصة أبيهم إبراهيم مع ولده.

الرابع: أن الله سبحانه بشَّر سارة أم إسحاق ﴿بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾، فبشَّرها بهما جميعًا، فكيف يأمر بعد ذلك بذبح إسحاق وقد بشَّر أبويه بِولدِ ولدِه؟!

---

(١) أي تغار من المملوكة كما سيأتي قريبًا.

(٢) أي الأمَة المملوكة.

الخامس: أن الله (سبحانه وتعالىٰ) لما ذكر قصة الذبيح، وتسليمَه نفسه لله تعالىٰ، وإقدامَ إبراهيم علىٰ ذبحه، وفرغ من قصته؛ قال بعدها: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾، فشكر اللهُ تعالىٰ له استسلامَه لأمره، وبذْلَ ولدِه له، وجعَلَ مِن إثابته علىٰ ذلك أن آتاه إسحاق، فنجَّىٰ إسماعيل من الذبح وزاده عليه إسحاق.

السادس: أن إبراهيم (صلوات الله تعالىٰ وسلامه عليه) سأل ربَّه الولَدَ فأجاب الله دعاءَه وبشَّره به، فلما بلغ معه السعي[1] أمره بذبحه، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾، فهذا دليل علىٰ أن هذا الولد إنما بُشِّر به بعد دعائِه وسؤالِه ربه أن يَهَبَ له ولدًا، وهذا المُبشَّر به هو المأمور بذبحه قطعًا بنص القرآن، وأما إسحاق فإنه بُشِّر به من غير دعوةٍ منه، بل علىٰ كِبَرِ السِّن وكونِ مثلِه لا يُولد له، وإنما كانت البِشارة به لامرأته سارة، ولهذا تعجَّبت من حصول الولد منها ومنه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، فتأمل

---

(١) أي صار الابن يمشي مع والده ويسعىٰ للعمل، وهو سن يكون فيه الابن قد بلغ حبه عند والده مبلغًا عظيمًا.

سياق هذه البشارة وتلك تجدُهما بشارتين متفاوتتين، مخرجُ إحداهما غير مخرج الأخرىٰ، والبشارة الأولىٰ كانت له والثانية كانت لها، والبشارة الأولىٰ هي التي أُمر بذبح من بُشِّر به فيها دون الثانية.

السابع: أن إبراهيم (عليه السلام) لم يَقدُم بإسحاق إلىٰ مكة البتة، ولم يُفرِّق بينه وبين أمه، وكيف يأمره الله تعالىٰ أن يذهب بابن امرأته فيذبحه بموضع ضَرَّتها، وفي بلدِها، ويدَع ابن ضرَّتها؟!

الثامن: أن الله تعالىٰ لما اتخذ إبراهيم خليلًا - والـخُلَّة تقتضي أن يكون قلبُه كلُّه معلقًا بربه، ليس فيه شعبة لغيره - فلما سأل الولدَ[1] وهبه إسماعيل، فتَعلَّقَ به شعبةٌ من قلبه، فأراد خليلُه سبحانه أن تكون تلك الشعبة له ليست لغيره من الخلق، فامتحنه بذبح ولده، فلما أقدم علىٰ الامتثال خَلُصت له تلك الـخُلَّة، وتمحَّضت لله وحده، فنُسِخ الأمر بذبحه لحصول المقصود، وهو العزم وتوطين النفس علىٰ الامتثال.

ومن المعلوم أن هذا إنما يكون في أول الأولاد لا في آخرها، فلما حصل هذا المقصود من الولد الأول لم يُحتج في الولد الآخر إلىٰ مثله، فإنه لو زاحمت محبةُ الولدِ الآخر الـخُلةَ لأَمَرَ بذبحه كما أمر بذبح الأول، فلو كان المأمور بذبحه هو الولد الآخر لكان قد أقرَّه في الأول علىٰ مزاحمة الخلة به مدة طويلة، ثم أمره بما

(١) أي سأل إبراهيمُ ربَّــهُ الولد.

يزيل المزاحِم بعد ذلك، وهذا خلاف مقتضىٰ الحكمة، فتأمله.

التاسع: أن إبراهيم (عليه السلام) إنما رُزِق إسحاق (عليه السلام) علىٰ الكِبَر، وإسماعيل (عليه السلام) رُزِقه في عنفوانه وقوَّته، والعادة أن القلبَ أعْلَقُ بأول الأولاد، وهو إليه أَمْـيَلُ وله أحب، بخلاف من يُرزَقُهُ علىٰ الكِبَر، ومحل الولد بعد الكِبَر كمحل الشهوة للمرأة.(١)

العاشر: أن النبي (صلىٰ الله عليه وسلم) كان يفتخر بقوله: أنا ابن الذَّبيحين.(٢)

يعني أباه عبد الله، وجده إسماعيل.

والمقصود أن هذه اللفظة مما زادوها في التوراة، ونحن نذكر السبب الموجِب لتغيير ما غُيِّر منها، والحقُّ أحقُّ ما اتُّـبِع، فلا نغلو غلوَّ المستهينين بها، المستجمِرين بها(٣)، بل معاذ الله من ذلك، ولا نقول: إنها باقية كما أُنزلت من كل وجهٍ كالقرآن، فنقول وبالله التوفيق:

---

(١) أي مكانة الولد في القلب بعد الكِبَر كمكانة الشهوة للمرأة بعدما تكبر، فإن المكانة تكون ضعيفة في الحالين.

(٢) للأمانة العلمية، فالحديث ضعيف كما بينه الألباني (رحمه الله) في «الضعيفة» (٣٣١، ١٦٧٧)، ويغني عنه ما تقدمه من الأدلة العقلية والنقلية، والحمد لله.

(٣) أي الذين يقولون: إنها تصلح للاستجمار، يشيرون إلىٰ أنها غير محترمة لأنها – برمتها – ليست كلام الله أصلًا، حسب قولهم.

إن علماء اليهود وأحبارهم لا يعتقدون أن هذه التوراة التي بأيديهم هي التي أنزلها الله تعالىٰ علىٰ موسىٰ بن عمران بِعينِها، لأن موسىٰ (عليه السلام) صان التوراة عن بني إسرائيل خوفًا من اختلافهم من بعده في تأويلها المؤدي إلىٰ تفرُّقهم أحزابًا، وإنما سلَّمها إلىٰ عشيرته أولاد «لاوي»، ودليل ذلك قوله في التوراة: (وكتب موسىٰ هذه التوراة ودفعها إلىٰ الأئمة من بني «لاوي»، وكان بنو هارون قُضاةَ اليهودِ وحكامَهم، لأن الإمامة وخِدمة القرابِين وبيت المقدس كانت موقوفة عليهم، ولم يبذُل موسىٰ (عليه السلام) من التوراة لبني إسرائيل إلا نصف سورة، وهي التي قال فيها: وكتب موسىٰ هذه السورة وعلَّمها بني إسرائيل).

هذا نص التوراة عندهم، قال: (وتكون لي هذه السورة شاهدةً علىٰ بني إسرائيل)، وفيها قال الله تعالىٰ: (إن هذه السورة لا تُنسىٰ من أفواه أولادهم).

وهذه السورة مشتملة علىٰ ذمِّ طبائعهم، وأنهم سيخالفون شرائع التوراة، وأن السُّخط يأتيهم بعد ذلك، وتُخرَّبُ ديارهم، ويُسْبونَ في البلاد، فهذه السورة تكون متداوَلة في أفواههم كالشاهد عليهم، المُوقِف لهم علىٰ صحة ما قيل لهم.

فلما نصت التوراة أن هذه السورة لا تُنسىٰ من أفواه أولادهم؛ دلَّ ذلك علىٰ أن غيرها من السور ليس كذلك، وأنه يجوز أن يُنسىٰ من أفواههم.

وهذا يدل علىٰ أن موسىٰ (عليه السلام) لم يُعطِ بني إسرائيل من التوراة إلا هذه السورة، فأما بقيتها فدَفعها إلىٰ أولاد هارون، وجعلها فيهم، وصانها عن

سواهم، وهؤلاء الأئمة الهارونيون الذين كانوا يَعرفون التوراة ويحفظون أكثرها قَتَلهم «بُخْتنصَّر» علىٰ دمٍ واحد يوم فتح بيت المقدس، ولم يكن حِفظُ التوراة فرضًا عليهم ولا سُنة، بل كان كلُّ واحد من الهارونيين يحفظ فصلًا من التوراة، فلما رأىٰ «عُزير» أن القوم قد أُحرق هيكلُهم وزالت دولتهم وتفرَّق جمعهم ورُفع كتابهم؛ جمع من محفوظاته ومن الفصول التي يحفظها الكهنة ما اجتمعت منه هذه التوراة التي بأيديهم، ولذلك بالغوا في تعظيم «عزير» هذا غاية المبالغة.

فزعموا أن النور الآن يظهر علىٰ قبره وهو عند بطائح[١] العراق لأنه جَمع لهم ما يَحفظ دينهم.

وغلا بعضهم فيه حتىٰ قال: هو ابن الله، ولذلك نسب الله تعالىٰ ذلك[٢] إلىٰ اليهود إلىٰ جنسهم، لا إلىٰ كل واحد منهم.[٣]

فهذه التوراة التي بأيديهم في الحقيقة كتاب «عُزير»، وفيها كثير من التوراة التي أنزلها الله تعالىٰ علىٰ موسىٰ (عليه الصلاة والسلام)، ثم تداولتها أمةٌ قد مزَّقها الله تعالىٰ كل ممزق وشتَّت شملها، فلحِقها ثلاثة أمور:

---

(١) بطائح جمع أبطح، وهو المكان المتسع يمر به السيل، فيترك فيه الرمل والحصىٰ الصغار. انظر «المعجم الوسيط».

(٢) أي ذلك القول.

(٣) كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾.

أحدها: بعضُ الزيادة والنقصان.

الثاني: اختلافُ الترجمة.

الثالث: اختلافُ التأويل والتفسير.

ونحن نذكر من ذلك أمثلة تبين حقيقة الحال:

المثال الأول: ما تَقدم من قوله: (ولحمٌ في الصحراء فريسةٌ لا تأكلوا، وللكلب ألقوه).

وتقدم بيان تحريفِهم هذا النص، وحملِه علىٰ غير محمَله.

المثال الثاني: قولُه في التوراة: (نبيًّا أُقيم لهم من وسطِ إخوتهم مثلكَ[1]، فليؤمنوا به)، فحرَّفوا تأويلَه، إذ لم يمكِنهم أن يُبَدلوا تنزيله، وقالوا: هذه بشارة بنيٍّ من بني إسرائيل، وهذا باطل من وجوه:

أحدها: أنه لو أراد ذلك لقال: (من أنفسهم)، كما قال في حق محمد (صلىٰ الله عليه وسلم): ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ولم يقل: (من إخوتكم).

الثاني: أن المعهود في التوراة أن إخوتَهم غير بني إسرائيل، ففي الجزء

---

(١) المخاطب هو موسىٰ عليه الصلاة والسلام، والمقصود بالنبي هو النبي محمد (صلىٰ الله عليه وسلم).

الأول من السِّفرِ الخامس قولُه لهم: (أنتم عابرون في تُخوم[١] إخوتكم «بني العِيص»، المقيمين في «سيعير»، إياكم أن تطمعوا في شيء من أرضهم)، فإذا كان «بنو العيص» إخوةً لبني إسرائيل لأن العيص وإسرائيل ولدا إسحاق، والروم هم «بنو العيص»، واليهود هم بنو إسرائيل وهم إخوتُهم؛ فكذلك بنو إسماعيل إخوةٌ لجميع ولد إبراهيم.

الثالث: أن هذه البشارة لو كانت بـ «شمويل» أو غيره من بني إسرائيل لم يَصح أن يقال: (بنو إسرائيل إخوة بني إسرائيل)، وإنما المفهوم من هذا أن بني إسماعيل أو «بني العيص» هم إخوة بني إسرائيل.

الرابع: أنه قال: (أُقيمُ لهم نبيًّا مثلك)، وفي موضع آخر: (أُنزل عليه توراةً مثل توراة موسىٰ)، ومعلوم أن «شمويل» وغيرَه من أنبياء بني إسرائيل لم يكن فيهم مثل موسىٰ، لا سيما وفي التوراة: (لا يقوم في بني إسرائيل مثل موسىٰ)، وأيضًا فليس في بني إسرائيلَ مَن أُنزل عليه توراةٌ مثلُ توراةِ موسىٰ إلا محمد والمسيح صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والمسيح كان من أَنفُسِ بني إسرائيل لا من إخوتهم، بخلاف محمد (صلىٰ الله عليه وسلم) فإنه من إخوتهم بني إسماعيل.

وأيضًا فإن في بعض ألفاظ هذا النص: (كلكم له تسمعون)، وشمويل لم

---

(١) تُخوم جمع تخم، وهو الحد الفاصل بين أرضين. انظر «المعجم الوسيط».

يأت بزيادة ولا نسخ، لأنه إنما أُرسل ليُقوِّيَ أيديَهم علىٰ أهل فلسطين وليرُدَّهم إلىٰ شرع التوراة، فلم يأت بشريعة جديدة ولا كتاب جديد، وإنما حُكمه حكم سائر أنبياء بني إسرائيـل، فإنـهم كانت تسوسُهم[١] الأنبياء، كلما هلك نبي قام فيهم نبي، فإن كانت هذه البشارة بـ «شمويل» فهي بشارة بسائر الأنبياء الذين بُعثوا فيهم، ويكونون كلُّهم مثل موسىٰ (عليه السلام)، وكلُّهم قد أُنزل عليهم كتابٌ مثلُ كتابِ موسىٰ (عليه السلام).

المثال الثالث: قوله في التوراة: (جاء الله تعالىٰ من طُور سيناء، وأشرق نوره من «سيعير»، واستعلن من «جبال فاران»، ومعه ربوات المقدسين).

وهم يعلمون أن جبل سيعير هو جبل السَّراة الذي يسكنه «بنو العيص» الذين آمنوا بعيسىٰ، ويعلمون أن في هذا الجبل كان مُقام المسيح، ويعلمون أن سيناء هو جبل الطور، وأما «جبال فاران» فهم يحملونها علىٰ جبال الشام، وهذا من بَـهتهم وتحريف التأويل، فإن «جبال فاران» هي جبال مكة، وفاران اسم من أسماء مكة، وقد دل علىٰ هذا نصُّ التوراة أن إسماعيل لما فارق أباه سكن في «برية فاران»، ولفظُ التوراة: (أن إسماعيل أقام في «برية فاران»، وأنكحته أُمُّـهُ امرأةً من أرض مِصر).

فثبت بنص التوراة أن «جبال فاران» مسكنٌ لولد إسماعيل، وإذا كانت

(١) تسوسهم مِن ساس، أي تولىٰ القيادة والرئاسة. انظر «المعجم الوسيط».

التوراة قد أشارت إلىٰ نبوةٍ تَنزل علىٰ «جبال فاران» لزِم أنها تَنزل علىٰ ولد إسماعيل لأنهم سكانها، ومن المعلوم بالضرورة أنها لم تَنزل علىٰ غير محمد (صلىٰ الله عليه وسلم) من ولد إسماعيل (عليه السلام)، وهذا من أظهر الأمور بحمد الله تعالىٰ.

فصلٌ، ومما يدل علىٰ غَلطِ أفهام هذه الأمة الغضبية وقلة فقههم وفساد رأيهم وعقولهم - كما جاء في التوراة (أنهم شعبٌ عادِمو الرأي، فليس فيهم فطانة) - أنهم سمعوا في التوراة: (بُكورُ ثمارِ أرضك تُحمَل إلىٰ بيت الله ربك، ولا يُنضَج الجدي بلبن أمه)، والمراد من ذلك أنهم أُمِروا عَقِيب افتراض الحج إلىٰ بيت المقدس عليهم أن يستصحبوا معهم إذا حجُّوا أبكار أغنامهم(١) وأبكار مُستغَلات أرضهم(٢)، لأنه كان فُرِض عليهم قبل ذلك أن تبقىٰ سُخولةُ(٣) البقر والغنم وراء أمها سبعة أيام، وفي اليوم الثامن فصاعدًا يَصلُح أن تكون قربانًا، فأشار في هذا النص بقوله: (لا يُنضَج الجدي بلبن أمه) إلىٰ أنهم لا يُبالِغون في إطالة مكث باكور(٤) أولاد البقر والغنم وراء أمها، بل يستصحبون

---

(١) أبكار أغنامهم أي أول نَتاجها.

(٢) أبكار مستغلات أرضهم أي أول نَتاجها.

(٣) سخولة جمع سخلة وهي صغار الغنم والبقر بعد ولادتها. انظر «المعجم الوسيط».

(٤) باكور أولاد البقر أي أول نتاجها.

أبكارهن اللاتي قد عبَرن سبعة أيام منذ ميلادهن معهم إذا حجوا إلىٰ بيت المقدس ليتخذوا منها القرابين.

فتوَهَّم المشايخ البُلْهُ أن الشرع يريد بالإنضاج إنضاج الطبيخ في القِدر، وأنهم نُهوا أن يطبخوا لحم الجدي باللبن، ولم يكْفهم هذا الغَلَط حتىٰ حرَّموا أكل سائر اللُّحمان باللبن، فألغوا لفظ الجدي وألغوا حليب أمه، وحمَّلوا النص ما لا يحتمل، وإذا أرادوا أن يأكلوا اللحم واللبن أكلوا كُلًّا منهما علىٰ حدة، والأمر في هذا ونحوِه قريب.

فصلٌ، ولا يُستبعد اصطلاح كافة هذه الأمة علىٰ المُحال واتفاقهم علىٰ أنواع الضلال، فإن الدولة إذا انقرضت عن أمةٍ باستيلاء غيرها عليها وأخذِها بلادَها انطمست معالمُ دينها واندرست آثارها، فإن الدولة إنما يكون زوالها بتتابع الغارات والمصافَّات[١] وإخراب البلاد وإحراقها، ولا تزال هذه الأمور متواترة عليها إلىٰ أن تعود[٢] عُلومُها جهلًا، وعزها ذلًّا، وكثرتها قلة، وكلما كانت الأمة أقدم واختَلفت عليها الدول المتناولة لها بالذُّل والصَّغار كان حظها من اندراس معالم دينها وآثارها أوفر.

---

(١) المصافَّات أي صفوف الجيش، ومقصود المؤلف تتابع الحروب عليهم، وانظر «المعجم الوسيط».

(٢) في المطبوع (يعود)، والمثبت من نسخة علي.

وهذه الأمة أوفرُ الأمم حظًّا من هذا الأمر لأنها من أقدم الأمم، ولكثرة الأمم التي استولت عليها من الكشدانيين والكِلدانيين والبابليين والفرس واليونان والنصارىٰ وآخر ذلك المسلمون، وما من هذه الأمم إلا من طلب استئصالهم وبالغ في إحراق بلادهم وكتبهم وقطع آثارهم إلا المسلمين، فإنهم أعدل الأمم فيهم وفي غيرهم، حِفظًا لوصية الله لهم حيث يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، وصادف الإسلام[1] هذه الأمة تحت ذمة الفرس وذمة النصارىٰ، بحيث لم يَبقَ لهم مدينة ولا جيش، وأعزُّ ما صادَفه الإسلامُ من هذه الأمة يهودُ خيبر والمدينة وما جاورها، فإنهم إنما قصدوا تلك الناحية لِما كانوا وُعِدوا به من ظهور رسول الله (صلىٰ الله عليه وسلم) بها، وكانوا يُقاتلون المشركين من العرب فيستنصرون عليهم بالإيمان برسول الله (صلىٰ الله عليه وسلم) قبل ظهوره، ويَعِدونهم بأنه سيخرج نبي نتَّبِعه ونقتُلكم معه قتل عادٍ وإرم، فلما بعث الله (عز وجل) نبيه (صلىٰ الله عليه وسلم) سبقهم إليه من كانوا يحاربونهم من العرب، فحملهم الحسد والبغي علىٰ الكفر به وتكذيبه.

وأشدُّ ما علىٰ هذه الأمة من ذلك ما نالهم من ملوك العصاة وغيرِهم من ملوك الإسرائيليين، الذين قتلوا الأنبياء وبالغوا في تطلُّبهم، وعبدوا الأصنام،

---

(١) صادف الإسلام هذه الأمة أي قابلها علىٰ غير موعد. انظر «المعجم الوسيط».

وأحضروا من البلاد سدَنتها ليُعلِّموا رُسومَها في العبادة[١]، وبنوا لها البِيَعَ والهياكل، وعكفوا علىٰ عبادتها، وتركوا أحكام التوراة أعصارًا متصلة[٢].

فإذا كان هذا تواتُر الآفات علىٰ دينهم من قِبَلِ ملوكهم؛ فما الظن بالآفات التي نالتهم من غير ملوكهم وإحراقهم كتبهم ومنعهم من القيام بدينهم؟

فإن الفرس كثيرًا ما منعوهم من الختان، وكثيرًا ما منعوهم من الصلاة، لمعرفتهم بأن مُعظم صلاة هذه الطائفة دعاء علىٰ الأمم بالبوار، وعلىٰ العالم بالخراب، فلما رأت هذه الأمة الجِدَّ من الفرس في منعهم من الصلاة اخترعوا أدعية سموها «الحزَّانة»، وصاغوا لها ألحانًا، وصاروا يجتمعون في أوقات صلواتهم علىٰ تلحينها وتلاوتها، وسمَّوا القائم بها «الحـزَّان».

والفرقُ بينها وبين الصلاة أن الصلاة بغير لحن، والمصلي يتلو الصلاة وحده ولا يجهر معه غيره، والحزَّان يشاركه غيره في الجهر بالحزَّانة، ويعاونونه في الألحان.

وكانت الفرس إذا أنكرت ذلك منهم قالت اليهود: (إنا ننعي[٣] أحيانًا وننوح علىٰ أنفسنا)، فيتركونهم وذلك.

---

(١) أي ليُعلِّموا الناس صفة عبادة تلك الأصنام.

(٢) أي عصورًا متواصلة.

(٣) في نسخة عزير (نُغَنِّي)، والمثبت من نسخة علي.

فلما قام الإسلام وأقرَّهم علىٰ صلواتهم استصحبوا تلك الحزَّانة ولم يُعطِّلوها.

فهذه فصول مختصرة في كيد الشيطان وتلاعبه بهذه الأمة، يَعرف بها المسلم الحنيفُ قدرَ نعمة الله (عز وجل) عليه، وما مَنَّ به عليه من العلم والإيمان، ويهتدي بها من أراد الله تعالىٰ هدايته من طالبي الحق من هذه الأمة.

وبالله التوفيق.(١)

* * *

(١) تم الكتاب بحمد الله، وقد تكلم غير ابن القيم (رحمه الله) من علماء المسلمين في بيان تلبيس ابليس علىٰ اليهود، كابن الجوزي (رحمه الله) في كتابه «تلبيس إبليس»، باب: «ذِكر تلبيس إبليس علىٰ اليهود»، فليرجع إليه من أراد الاستزادة.